كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الأسـرار البلاغـــية للمخالفة بين الصيغ فى الذكـــر الحكيم

إعداد

د/ سـلامه سـيد سـعد

مدرس البلاغة والنقد فى كلية البنات الإسلامية بأسيوط

(العدد الثلاثون – الجزء الثاني أكتوبر ٢٠١١)

كلية اللغة العربية بأسيوط

المجـــلة العلميـــة

الأســرار البلاغـــية للمخالفة بين الصيغ فى الذكـــر الحكيم

إعداد

د/ سـلامه سـيد سـعد

مدرس البلاغة والنقد فى كلية البنات الإسلامية بأسيوط

(العدد الثلاثون – الجزء الثاني أكتوبر 2011)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين , خلق الإنسان علمه البيان ، والصـــلاة والســـلام على أشرف الخلق وخاتم النبيين سيدنا محمد النبي العربى الأمـــين الـــذى أوتـــى جوامع الكلم فكان أفصح الناطقين . وبعد ،،،

فالقرآن الكريم كتاب الله الذى لا تنقضى عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء وكلما أمعن المتأملون النظر فيه والفكر وجدوا أنفسهم أمام بحر من المعانى لا ســـاحل لـــه ، فمعانيه متجددة حية , تتجدد بتجدد الزمان والمكان , ومع كونه معجزة بيانيه خالدة هو – مع ذلك – معجزه تشريعية ربانية , ولذلك انصرفت إليه جهود علماء اللغـــة والبيان لمعرفة أساليبه وبلاغة بيانه , فهو كتاب العربيـــة الأول والبيان الخالد .

والمقصود بالمخالفة فى الصيغ فى الذكر الحكيم , المخالفة الحاصلة مـــن إعادة ذكر الفعل على نسق مخالف لما سبق ذكره فى السياق نفسه ، وكذا الحـــال فى الاسم ، والاسم مع الفعل ، والعكس , وهذه الظـــاهرة مـــن أبـــرز الظـــواهر الأسلوبية فى التعبير القرآنى .

وقد توقف علماؤنا عند هذا النوع من المخالفة والتحول وعـــدوه ضـــربا مـــن البلاغة , يقول ابن الآثير : (واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن التحـــول عـــن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية , اقتضت ذلك, وهـــو لا يتوخاه فى كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها , وفتش

عن دفائنها , ولا تجد ذلك فى كل كلام , فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما, وأغمضها طريقا) . [1]

ومن دواعى دراسة هذا الموضوع أن هذه المخالفة فى السياق القرآنى تفاجئ المتلقى ، وتثير دهشته لخروجها عن المتوقع لديه من إطراد السياق على نمط واحد من المطابقة ، مما يجعل ذلك المتلقى أن يبحث عن ميثراتها السياقية وأبعادها الدلالية ، ولذا حاول البحث الوقوف على صور هذه المخالفة فى الذكر الحكيم وأسرارها البلاغية .

ومن ثم يأتى هذا البحث الذى سميته : (الأسرار البلاغية للمخالفة بين الصيغ فى الذكر الحكيم) متضمنا مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة .

أما المقدمة : فقد تحدثت فيها عن مكانة القرآن الكريم، وشرف الدراسة فيه، وأهمية الموضوع ، ودواعى دراسته .

المبحث الأول : تناولت فيه الأسرار البلاغية لمخالفة الماضى للمضارع .

والمبحث الثانى : تناولت فيه الأسرار البلاغية لمخالفة المضارع للماضى

والمبحث الثالث : تناولت فيه الأسرار البلاغية لمخالفة الأمر للماضى والمضارع والعكس .

والمبحث الرابع : خصصته لمخالفة الاسم للفعل والعكس فى الذكر الحكيم وما ترتب على ذلك من الأسرار البلاغية .

ثم جاءت الخاتمة التى ذكرت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يوفقنى إلى ما

---

[1] المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير : 2 / 12، تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط المكتبة العصرية ، بيروت 1990 م.

فيه الخير والصواب ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

د / سلامه سيد سعد

المدرس فى كلية البنات الإسلامية بأسيوط

المبحث الأول

الأسرار البلاغية لمخالفة المضارع للماضى

ومخالفة المضارع للماضى يكون على نوعين : نوع يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث قد مضى وانقضى ، ونوع آخر يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث يقع فى الحال والاستقبال .

أما النوع الأول : فمجيئ المضارع فيه للدلالة على حدث قد مضى وانقضى ، وقد قرر علماء البلاغة أن المضارع فى الحالة هذه ، يُقصد به استحضار الصورة للحدث الماضى ، وكأنه أمر مشاهد بارز للعيان .

يقول ابن الأثير (ت 637 هـ) : (اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك من الإخبار بالفعل الماضيِ وذاك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيهاِ ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدهاِ وليس كذلك الفعل الماضيِ) . [1]

وعد السكاكى (ت 626 هـ) هذا النوع أصلا بلاغيا ثابتا إذا اقتضى السياق اللجوء إليه ، فقال : (وأنه – أى الانتقال من التعبير بالماضى إلى المضارع – طريق للبلغاء لا يعدلون عنه إذا اقتضى المقام سلوكه) . [2]

ويرد هذا النوع من المخالفة بكثرة فى الكتاب العزيز ، ويعد من روائع البيان فيه ، قوله تعالى مخاطبا اليهود : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ

---

[1] المثل السائر لابن الأثير : 2 / 12.

[2] مفتاح العلوم للسكاكى ، ص 355 ، ت د / عبد الحميد هنداوى ، ط دار الكتب العلمية بيروت ، ط أولى 2000م.

رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَـذَّبْتُمْ وَفَرِيقـاً تَقْتُلُـونَ} (سـورة البقرة 87) .

ففى هذا السياق حصل تحول عن الفعل الماضى (كَـذَّبْتُمْ) إلـى الفعـل المضارع (تَقْتُلُونَ) وكان مقتضى السياق – الظاهر – بموجب المطابقة الزمنيـة بين الأفعال أن يكون على النحو التالى : (ففريقا كذبتم وفريقا قتلتم) لا سيما أنه يتحدث عن أمر حدث فى الزمن الماضى من تكذيب اليهود للأنبياء وقتلهم إيـاهم لكن السياق تحول عن الماضى إلى المضارع ، لاستحضار تلك الصـورة البشـعة فى قتل الأنبياء ، لتثبتها فى القلوب ، وتنفير النفوس منها ، لشـدة فظاعتهـا ، ودلالتها على فسادهم وطغيانهم . [1]

ويرى أحد الباحثين أن العدول عن صيغة الماضى إلى المضارع فى هـذه الآية ليس للعلة البلاغية التى قال بها العلماء فى استحضـار الصـورة ، وإنمـا يرجع هذا العدول إلى : (ما تتطلبه الفاصلة القرآنية من انسـجام صـوتى حـتم استعمال صيغة (تَقْتُلُونَ) بدلا من (قتلتم) . [2]

أى حتى تلائم الفواصل القرآنية فى الآيات السابقة عليها ، ولا يتأتى ذلك بالتعبير بلفظ الماضى ، فإن فواصل الآيات كـرءوس الأبيـات ؛ ولأن المضـارع يستعمل فى الماضى الذى بلغ من الغرابة مبلغا عظيما ، كأن صورة قتل الأنبيـاء ماثلة أمام السامع ينظر إليها .

وهذه صورة واضحة تبين موقف فئة من البشر من الأحكام الإلهية فمـن أعرض عنها وجحد بها ، واستكبر عن قبولها ، كان مصيره المحقق المنتظر هو

---

[1] ينظـر : التحـرير والتنويـر للطاهـر بن عاشـور : 1 / 598 ، ط دار التونسية وفن البلاغة ، د / عبد القادر حسين ، ص 290 ، ط عالم الكتب ، ط ثانية 1984م .

[2] من أسرار اللغة ، د / إبراهيم أنيس ، ص 156 وما بعدها ، ط الأنجلو ، ط ثالثة.

استحقاق العذاب ، والطرد من رحمة الله .

وهذا الحشد المتتابع من الرسل الذين جاءوا لبني إسرائيل يدل على مزيد العناية الإلهية بأعتى البشر ، وتمكينه من العودة إلى طريق الحق ، فإذا عُوقب ذلك العاتي المستكبر ، كان عقابه حقا وعدلا . [1]

ونظير ما سبق قوله : { لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ } (سورة المائدة 70) .

الآية استئناف عاد به الكلام على أحوال اليهود وجراءتهم على الله وعلى رسله ، وذلك تعريض باليأس من هديهم بما جاء به محمّد (ﷺ) وبأن ما قابلوا به دعوته ليس بدعاً منهم بل ذلك دأبهم جيلاً بعد جيل . [2]

وفى قوله تعالى : (فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) جاء الفعل الماضى أولا (كَذَّبُواْ) فقرر أمرا وقع ، ثم جاء الفعل (يَقْتُلُونَ) بصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية استفظاعا للقتل واستحضارا لتلك الصورة الشنيعة للتعجب منها واستخلاص العبرة من مطاويها .

يقول الزمخشرى (ت 538 هـ) : (جيئ " يقتلون " على حكاية الحال الماضية , استفظاعا للقتل واستحضارا لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها) [3] , لقد أراد القرآن الكريم أن ينقل لنا صورة القتل حية كأنها ترتكب أما أعيننا ، ولم يقصد ذلك فى التكذيب ؛ لأن التكذيب يحدث مرة واحدة ، ولأول وهلة ، فى حين

---

[1] ينظر : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ، د / وهبة الزحيلى : 1 / 218 222 ، ط دار الفكر المعاصر ، بيروت.

[2] التحرير والتنوير : المجلد الرابع : جـ 6 / 272.

[3] الكشاف للزمخشرى : 1 / 295 ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى 1995م.

أن القتل يحتاج إلى وقت من شأنه أن يتكرر وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بفريق من الناس لا بشخص واحد . [1]

ومن أمثلة هذا المضارع قول تأبط شرا :

بِأَبي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي ∴ بِسَهْبٍ كالصَّحيفَةِ صَحْصَحَانِ

فَأَضْرِبُهَا بِلا دَهَشٍ فخَرَّتْ ∴ صَرِيعاً لِليدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ [2]

فإنه قصد أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغولِ كأنه يبصرهم إياها مشاهدةِ ، للتعجب من جراءته على ذلك الهولِ ، ولو قال (فضربتها) عطفاً على الأول (لقيت) لزالت هذه الفائدة المذكورة . [3]

وقد ذكر صاحب المثل السائر قوله: (فإن قيل: إن الفعل الماضي- أيضاً- يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل ، قلت في الجواب : إن التخيل يقع في الفعلين معاً , لكنه في أحدهما – وهو المستقبل – أوكد وأشد تخيلاً ؛ لأنه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منهِ , ألا ترى أنه لما قال تأبط شراً : (فأضربها) تخيل السامع أنه مباشر للفعلِ , وأنه قائم بإزاء الغولِ , وقد رفع سيفه ليضربهاِ وهذا لا يوجد في الفعل الماضيِ ؛ لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليهِ ، وهذا لا خلاف فيهِ) . [4]

---

[1] الزمن فى النحو العربى ، د / كمال بدوى ، ص 119 ، ط دار أمية للنشر ، ط أولى 1984م.

[2] السهب : الفلاة ، أو الأرض المستوية ، الصحصحان : الأرض الواسعة التى ليس بها شجر ولا قرار للماء ، والبيتان فى المصباح لبدر الدين بن مالك ، ص 71.

[3] المفتاح للسكاكى ، ص 355 ، المثل السائر : 2 / 14.

[4] المثل السائر: 2 / 14 ، وإعراب القرآن وبيانه للشيخ محيى الدين الدرويش : 2 / 530 نشر دار الإرشاد للشئون الجامعية ، حمص ، سورية ، ودار اليمامة ، دمشق.

ومما سبق ذكره يمكننا الجمع بين دلالات هذه السياقات المختلفة لنقول : إن دلالة الفعل (يقتلون) تفيد استحضار صورة قتل الأجداد للأنبياء تبشيعا لقبح فعلتهم ، وذلك من سياق الإخبار عنهم بضمير الغائب (إليهم – جاءهم – أنفسهم) وفيه دلالة على استمرار الحدث وتجدد حصوله من الأبناء والأحفاد وذلك من سياق الخطاب ، وفيه تيئيس من تحقق ذلك وحصوله فى حق هذا النبى (ﷺ) .

وكما أن وظيفة استحضار الصورة فى سياق الآيات السابقة كان لغرض : (تصوير فظاعة الحدث وقبحه) ، فكذلك نجد استحضار الصورة فى سياق آخر يرد : للفت الأنظار إلى موضع القدرة والاعتبار ، من ذلك قوله : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } (سورة آل عمران 59).

شاهدنا قوله تعالى : (ثمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) ومقتضى الظاهر أن يقال: (ثم قال له كن فكان) ولكنه عدل عن هذا المقتضى إلى التعبير بالمضارع (فَيَكُونُ) ، لإبراز تلك الأحداث وإحضارها ماثلة أمامك ؛ لأنها أحداث عجيبة، إذ تمثل أمامك القدرة الإلهية (كُن فَيَكُونُ) .

ويرد التحول لإظهار عناية الله فى إزالة الشرك من نفوس البشر كما فى قوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } (سورة الأنبياء 25)

الآية استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية ، وأجمعت عليه الرسل – عليهم السلام – ، وفيها إظهارٌ لعناية الله – تعالى – بإزالة الشرك من نفوس البشر , وقطع دابره إصلاحاً

لعقولهم[1]، وفى النظم القرآنى جاء الفعل (نوحى) بصيغة المضارع ، مخالفا للفعل الماضى (أرسلنا) وذلك لحكاية الحال الماضية ، استحضارا لصورة الوحى .

ومن الشواهد التى جاء التحول فيها لاستحضار الصورة الدالة على القدرة الباهرة، قوله تعالى : {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } (سورة فاطر 9)

الآية مسوقة لإثبات حقيقة البعث ، تلكم التى أنكرها الملحدون وجادل فيها المجادلون ، استبعادا لصيرورة الشئ إلى نقيضه ، ومن ثم كان تشبيه البعث فى الآية متمثلا فى تذييلها بقوله : (كَذَلِكَ النُّشُورُ).

ويلاحظ أن المولى جل شأنه قال : (فَتُثِيرُ) بلفظ المضارع ، وقبله فعل ماض (أَرْسَلَ) وبعده فعل ماض كذلك وهو قوله (فَسُقْنَاهُ) فكان حق التعبير أن يكون بلفظ الماضى – أيضا – ولكنه عبر بالمضارع (فَتُثِيرُ) مبالغة فى استحضار إثارة الرياح للسحاب لتتصورها النفوس ، وتستقر فى القلوب .

وهذا ما عبر عنه الزمخشرى بقوله : (فإن قلت : لم جاء (فَتُثِيرُ) على المضارعة دون ما قبله ، وما بعده ؟ قلت ؛ ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية)[2] ، وبهذا قال صاحب الطراز [3] : ولم يؤت بفعل الإرسال في هذه الآية

---

[1] تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : 3 / 63 ، ط دار إحياء التراث العربى ، بيروت.

[2] الكشاف للزمخشرى : 3 / 583.

[3] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوى : 2 / 137 وما بعدها ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت.

بصيغة المضارع بخلاف قوله تعالى في سورة الروم: { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ...} [1] ؛ لأن القصد هنا استدلال بما هو واقع إظهاراً لإمكان نظيره , وأما آية سورة الروم فالمقصود منها : الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه . [2]

ومن ذلك – أيضا – قوله تعالى : { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ } (سورة ص 18 – 19)

الآية بيان لقوله تعالى : { ... وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ } أى اذكر فضائله وما أنعمنا عليه من تسخير الجبال ، وكيت ، وكيت ..

وفى النظم القرآنى جاء قوله (يُسَبِّحْنَ) بصيغة المضارع ، ومقتضى الظاهر أن يقال : (مسبحات) ؛ لأن التسبيح قد وقع فى زمن داود – عليه السلام – ولكن النظم الكريم خالف هذا الظاهر، وعبر بالمضارع (يُسَبِّحْنَ) ليحضر الحدث من الماضى البعيد ويبرزه فى مقام المشاهدة ، وكأنك تنظر إلى هذا الحدث العجيب واقعا أمامك وذلك لأن تسبيح الجبال وتأويبها من الأحداث العجيبة الدالة على قدرة الله – عز وجل – .[3]

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت : هل من فرق بين (يسبحن) و (مسبحات) ؟ قلت : نعم ، وما اختير (يسبحن) على (مسبحات) إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شئ , وحالاً بعد حال ،

---

[1] سورة الروم آية (48).

[2] التحرير والتنوير : المجلد الحادى عشر : جـ 22 / 268.

[3] ينظر : خصائص التراكيب ، د / محمد أبو موسى ، ص 207 ، ط دار التضامن ط ثانية.

وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح) . [1]

وقوله (والطير) معطوفة على " الجبال " والتقدير: وسخرنا الطير محشورة والمحشورة: المجتمعة حوله عند قراءته الزبور، ولم يؤت فى صيغة الطير بالحشر بالمضارع ، كما جيئ به فى (يسبحن) ، إذ الحشر يكون دفعة ، فلا يقتضى المقام دلالة على تجدد، ولا على استحضار صورة، لذا جئ به اسما لا فعلا . [2]

ونظير شاهدنا قوله : { وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ } (سورة الأنبياء 78، 79)

حيث لم يعبر بالماضى فيقال : (إذ حكما فى الحرث) ولا باسم الفاعل (مسبحات) حسب مقتضى الظاهر، ولكنه عدل عنه إلى المضارع ، إبرازا وإحضارا لصورة الحدثين وهما يقعان وكأن القارئ يشاهدهما يحدثان أمامه . [3]

ومن خلال هذا تبين لنا أن التعبير بالمضارع عن الماضى استحضاراً لصورته العجيبة لم يكن مقتصرا على ذلك فحسب ، بل تعداه إلى التعبير بالمضارع عن اسم الفاعل واسم المفعول كما هنا .

---

(1) الكشاف للزمخشرى : 4 / 74 ، 75 ، التفسير الكبير : 13 / 296.

(2) ينظر : التفسير الكبير : 13 /297 ، التحرير والتنوير : المجلد الحادى عشر : 23 / 228.

(3) ينظر : علم المعانى دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى ، د / بسيونى عبد الفتاح فيود : 1 / 253 ، ط دار المعالم الثقافية ، مؤسسة المختار ، القاهرة.

وفى قولـــه تعالى : { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ } (سورة ص 36)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (فسخرنا له الريح جارية بـــأمره) ولكنـــه عدل عن هذا الظاهر فعبر بالمضارع (تجرى) إحضارا لتلك الصـــورة العجيبـــة الدالة على القدرة الإلهية ، وكأنك حين تقـــرأ الآيات تشـــاهد الريح تجرى بـــأمر سليمان – عليه السلام – وتتمثل صـــورة جريانهـــا بقـــدرة الله تعـــالى، وتســـخير الله إياها له – عليه السلام –.

ويتحول الماضى المنفى إلى المضارع المنفى فيفيد الفعل المضـــارع فـــى هذه الحالة ، تأكيد النفى ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَـــذَابِ فَمَـــا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ } (سورة المؤمنون 76)

الآية استدلال على مضمون قوله تعالى : { وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِـــم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [1] بسابق إصرارهم على الشرك والإعراض عن الالتجاء إلى الله ، وعدم الاتعاظ بأن ما حل بهـــم مـــن العـــذاب هـــو جـــزاء شركهم . [2]

والمتوقع من سياق هذه الآية أن تكون على النحو التالى : (فما استكانوا لربهم وما تضرعوا) لكن السياق القرآنى تحـــول عـــن الماضـــى المنفـــى إلـــى المضارع المنفى ، والسبب فى ذلك – والله أعلم – أن حالة التضرع هـــى رتبـــة أعلى فى الخضوع من الاستكانة نفسها ، إذ التضرع ضـــرب مـــن الإمعـــان فـــى الابتهال واللجوء إلى الله تعالى ، فنفى ما هو أدنى يستلزم من باب أولى التأكيـــد فى نفى ما هو أعلى رتبة ، فإذا انتفت الاستكانة منهم ، فمـــن باب أولى ينتفـــى

---

[1] سورة المؤمنون (75).

[2] التحرير والتنوير : المجلد التاسع : جـ 18 / 100.

حصول أدنى تضرع منهم ، لذا تحول السياق فى النفى عن الماضى إلى المضارع، إذ نفى المضارع أشد تأكيدا من نفى الماضى .

ولعل ذلك ما قصده الطاهر بن عاشور بقوله : (والتعبير بالمضارع في (يتضرعون) لدلالته على تجدد انتفاء تضرعهم) [1] ، إذ يفهم من قوله : (تجدد الانتفاء) تكرار النفى واستمراره، وذلك ضرب من التأكيد، وهو ما يفهم – أيضا – من قول الألوسى (ت 1270هـ) : (وعبر في التضرع بالمضارع ليفيد الدوام إلا أن المراد دوام النفي لا نفي الدوام) . [2]

ولو جرى السياق على النمط المتوقع فجاء : (فما استكانوا لربهم وما تضرعوا) لكان المقصود – والله أعلم – وما تضرعوا التضرع المطلوب لرفع البلاء وكشف العذاب ، وإنما جاء (وما يتضرعون) لنفى حصول أدنى شئ من التضرع أصلا ، فالمقصود : ذم هؤلاء بالجفوة والقسوة ، وعدم الخضوع .

وللتحول إلى المضارع دلالات تخرج عن دلالة استحضار الصورة إلى معان أخر يشى بها السياق القرآنى ، من ذلك : دلالة التلطف فى الخطاب ، وكثرة وقوع الفعل وتكراره ، أو تجدده واستمراره ، فمن دلالة التلطف فى الخطاب قوله تعالى : { قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } (سورة سبأ 25)

لقد كان المتوقع لدى المتلقى أن يجرى السياق على نمط واحد فيكون: (قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما أجرمتم) ولكن السياق القرآنى تحول عن الظاهر والمتوقع تحولين ، تحولا معجميا عن لفظة

---

(1) المرجع السابق الموضع نفسه ، التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى : 11 / 397 نشر دار الغد العربى ، ط أولى 1412هـ 1992م.

(2) روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى ، شهاب الدين السيد محمود الألوسى : 18 / 55 وما بعدها ، نشر دار إحياء التراث العربى ، بيروت.

"أجرم" إلى لفظة " عمل " وتحولا نحويا عن الماضى (أجرمنا) إلى المضارع (تعملون) , وقد علل ذلك الألوسى فقال : (وهذا أبلغ في الإنصاف حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس , وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات وأسند للمخاطبين , وزيادة على ذلك أنه ذكر الأجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق والوقوع وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك بل تدل على استمرار فعلهم ، وفى هذا تعريض وتوبيخ لأهل الشرك والضلال) . [1]

ومن السياقات التى يرد فيها التحول للدلالة على كثرة وقوع الفعل وتكراره ، قوله تعالى : { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون } (سورة الزخرف 6 – 7)

ففى هذه الآية نجد التحول عن الفعل الماضى (أرسلنا) إلى الفعل المضارع (يأتيهم) وكان المتوقع بموجب المطابقة بين الأفعال أن يرد السياق على النحو التالى : (وكم أرسلنا ... وما أتاهم ... إلا استهزءوا به) لأنه يخبر عن حدث مضى ، وذلك بقرينة لفظية وهى قوله : (فى الأولين) ولكن التحول إلى الفعل المضارع (يأتيهم) فى هذا السياق دل على الكثرة والتكرار ، فكثرة مجئ الرسل قوبل بكثرة الاستهزاء ، والفعل الدال على ذلك (يستهزءون) مسبوقا بـ (كان) وسبق الفعل المضارع بـ (كان) قد يفيد الدلالة على اعتياد الأمر فى الماضى ووقوعه بصورة متكررة .

قال الإمام الرازى : (والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم

---

[1] ينظر : روح المعانى للألوسى : 22 / 141 ، مفتاح العلوم للسكاكى ، ص 353 عروس الأفراح : 2 / 66 ، ط دار السرور.

إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء ...) . [1]

ومن أمثلة مجئ التحول ، للدلالة على الاستمرار ، قوله تعالى : { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } (سورة البروج 8)

فقد تحول السياق عن الفعل الماضى (نقموا) إلى المضارع (يؤمنوا) وكان يتوقع أن يرد السياق على النحو التالى : (وما نقموا منهم إلا أن آمنوا ...) لأنه يخبر عن حدث مضى وانقضى ، وهو ما حصل للفئة المؤمنة على أيدى أعدائهم ، واللافت للنظر هو مجئ الفعل المضارع : (إلا أن يؤمنوا) وليس (إلا أن آمنوا) كما هو الحال فى قوله تعالى : { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}[2] , فما السر فى مجئ الفعل (نقموا) ماضيا فى سياق سورة البروج والتحول عنه إلى المضارع (يؤمنوا) فى السياق نفسه ، فى حين ورد العكس فى سورة المائدة ، إذ جاء الفعل (تنقمون) مضارعا وتحول عنه إلى الماضى (آمنا)؟ والذى يظهر – والله أعلم – أن السياق هو الذى يفرض التعبير المقصود للمعنى المسوق له فيكون كل سياق قد اختص بتركيب قصد إليه لمعنى ، وهو من البلاغة بمكان؛ لأنه يقتضى موافقة الكلام لمقتضى الحال .

إن مجئ الفعل (نقموا) ماضيا فى سياق الآية السابقة من سورة البروج يشير إلى أن هذه النقمة مضت وانتهت بهلاك الذين فتنوا من المؤمنين ، فليس فيها تجدد واستمرار ، ودل التحول إلى صيغة المضارع (إلا أن يؤمنوا) – مع أن الإيمان وجد منهم فى الماضى – على أن تعذيبهم إياهم ، وإنكارهم عليهم ليس للإيمان الماضى ، وإنما لديمومته متمكنا فيهم، مركوزا فى صدورهم ، فكأنه

---

[1] التفسير الكبير للرازى : 14 / 76.

[2] سورة المائدة (59).

قيل : إلا استمرارهم على إيمانهم . [1]

فى حين دل سياق الآية من سورة المائدة على أن نقمة أهل الكتاب متجددة مستمرة ضد المسلمين لا تنقطع عنهم بحال ، بدلالة الفعل المضارع (تنقمون) ودل التحول إلى الفعل الماضى (آمنا) على أن إيمان المسلمين حاصل متحقق، فهو فى حكم الماضى فى تحققه وحصوله ، فلا مطمع لأعدائهم فى ارتدادهم عنه .

والفرق بين هذا النوع من التحول الدال على الاستمرار ، والذى قبله الدال على الكثرة والتكرار ، أن التكرار يتخلله فترات انقطاع وإن كانت متقاربة فى الزمان ، فى حين أن الاستمرار يقتضى الاتصال .

وما سبق ذكره من الآيات القرآنية هى نماذج للنوع الأول الذى يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث مضى وانقضى .

النوع الثانى : يرد فيه المضارع مخالفا للماضى للدلالة على حدث يقع فى الحال والاستقبال ، ويقرر البلاغيون أن مجئ المضارع للدلالة على الحال والاستقبال يفيد التجدد والحدوث ، وأن هذا الحدث مستمر الوجود ، ولم يمض ، يقول ابن الأثير : (عطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين: أحدهما : بلاغيِ ، وهو إخبار عن ماض بمستقبلِ ، والآخر : غير بلاغيِ ، وليس إخبارا بمستقبل عن ماضِ وإنما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماضِ ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض) . [2]

ويفهم من كلام ابن الأثير أن هذا النوع من التحول ليس ضربا من ضروب البلاغة ، وما ذهب إليه ليس صحيحا ، إذ البلاغة هى موافقة المقام

---

[1] ينظر : إعراب القرآن وبيانه : 10 / 431 ، والتفسير الكبير : 16 / 321.

[2] المثل السائر لابن الأثير : 2 / 13.

لمقتضى الحال وقد جاء هذا التحول ليوافق مقتضى الحال الذى سيق من أجله ، وقد استعمل فى النصوص الأدبية الراقية لا سيما القرآن الكريم ، ولا يكون ذلك إلا لمنحى بلاغى إذ لا يقع ما ليس بليغا فى كلام الله – ﷻ – .

وقد اعترض الدكتور / محمد أبو موسى على ابن الأثير ؛ لإخراجه هذا النوع من المخالفة من البلاغة فقال : (ولست أدرى لماذا كان هذا القسم غير بلاغى ؟ أليست البلاغة نظرا فيما تنطوى عليه خصائص الألفاظ وأحوالها لإبراز معانيها ، وبيان لطائفها ومطابقتها لبيان الكلام ؟ وأليس هذا داخلا فى أحوال اللفظ التى بها يطابق مقتضى الحال ؟ . [1]

وابن الأثير نفسه عند تحليله لنماذج قرآنية من هذا النمط ، أشار إلى وجه البلاغة والبيان فيها ، مما يوحى بالتضارب لديه . [2]

ويرد هذا النوع من المخالفة فى السياق القرآنى لأسرار بلاغية منها : التجدد والاستمرار ، كما فى قوله تعالى : { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ } (سورة البقرة 212)

الآية الكريمة مسوقة لبيان أن المؤمنين الذين قد يكونون فى الدنيا هدفا لسخرية الكفار وتعاليهم الزائف هم – لا الكفار – الأعلون يوم القيامة .

وجئ في فعل التزيين بصيغة الماضي (زين) وفي فعل السخرية بصيغة المضارع (ويسخرون) قضاءً لحقّي الدلالة ، على أن معني فعل التزيين أمر مستقر فيهم ؛ لأن الماضي يدل على التحقق ، وأن معنى (يسخرون)

---

(1) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ، د / محمد أبو موسى ، ص ، ط مكتبة وهبة القاهرة ، ط الثانية 1408هـ 1988م.

(2) المثل السائر :2 / 13 بتصرف.

متكرر متجدد منهم ؛ لأن المضارع يفيد التجدد ، ويعلم السامع أن ما هو محقق بين الفعلين هو – أيضاً – مستمر ؛ لأن الشئ الراسخ في النفس لا تفتر عن تكريره ويعلم أن ما كان مستمراً هو – أيضاً – محقق ؛ لأن الفعل لا يستمر إلاّ وقد تمكن من نفس فاعله ، وسكنت إليه ... ويكون المعنى في الآية: زُيِّن للذين كفروا وتزين الحياة الدنيا وسخروا ويسخرون ... [1] ، ويحتمل أن يكون قوله : (ويسخرون) خبر لمبتدأ محذوف ، أى وهم يسخرون فيكون من عطف الاسمية على الفعلية للإشعار بأنه أتى بالأولى فعليه دلالة على التجدد والحدوث ، أما استعلاء الذين اتقوا عليهم فهو أمر ثابت الديمومة لا يطرأ عليه أى تبديل . [2]

وبجانب هذا التحول نجد تحولاً آخر فى الدلالة المعجمية ، حيث إن ظاهر السياق يقتضى أن يقال : (والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة) .

لقد ذكر الزمخشرى أن سر العدول عن لفظ الإيمان (آمنوا) إلى لفظ التقوى (والذين اتقوا) هو : (ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقي , وليكون بعثا للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك) . [3]

وقيل: إن فى العدول عن صفة الإيمان إلى صفة التقوى– فى هذا السياق – تسفيها لهؤلاء الساخرين ، وإبرازا للمفارقة بين تعالى الساخر بزينة الحياة الدنيا وتعالى المسخور منه على تلك الزينة اتقاء للافتتان بها ، أو الانغماس فى متاعها الزائل .[4]

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير: 2 / 296، 297، التفسير المنير: المجلد الأول: جـ 2/ 232.

[2] ينظر : إعراب القرآن وبيانه : ! / 312.

[3] الكشاف للزمخشرى : 1 / 129 ، التفسير الكبير : 6 / 8 ، البحر المحيط لأبى حيان : 2 / 130 ، ط دار الفكر ، بيروت ، ط ثانية 1983م.

[4] أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية، د / حسن طبل ، ص 163 وما بعدها ، ط دار الفكر.

ومثل ذلك قوله تعالى : { إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } (سورة آل عمران 35 – 36)

ففى الآيات تكررت " إن " أربع مرات ، وفى الثلاثة الأولى كان خبرها فعلا ماضيا (إِنِّي نَذَرْتُ ... إِنِّي وَضَعْتُهَا ... وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا) وفى المرة الرابعة عدلت عن الماضى إلى المضارع فقالت: (وَإِنِّي أُعِيذُهَا) وذلك لنكتة بلاغية هى: ديمومة الاستعاذة وتجددها واستمرارها بخلاف الأخبار السابقة ، فإنها انقطعت.[1]

ونلاحظ فى قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران : { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ...) نغمة الحزن والحسرة على ما رأته من خيبة رجائها ، وعكس تقديرها ؛ لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ولدا (ذكرا) تهبه لخدمة بيت المقدس، فلما ولدت أنثى تحسرت وتحزنت لذلك .

ولنتأمل – أيضا – قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } (سورة الحج 25) فإنه إنما عطف المستقبل (ويصدون) على الماضي (كفروا) ؛ لأن كفرهم كان ووجدِ ، ولم يستجدوا بعده كفراً ثانياً وصدهم متجدد على الأيام لم يمض كونهِ، وإنما هو مستمر يستأنف في كل حينٍ .[2]

ومنه قوله تعالى : { وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير : 3 / 232 ، التفسير المنير : 3 / 213 ، إعراب القرآن وبيانه : 1 / 498.

[2] ينظر : المثل السائر : 2 / 15 ، الكشاف للزمخشرى : 3 / 29.

وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } (سورة الرعد 22)

ففى الآية الكريمة تحول عن الماضى (صبروا) وما عطف عليه إلى المضارع (يدرءون) وذلك لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يحرص عليه ؛ لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت ، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيئات بالحسنات .

ومما جاء فيه المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار – أيضا – قوله تعالى : { الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } (سورة الرعد 28) فالآية الكريمة وصف لحسن حال المؤمنين ، ومقايسته بسوء حال الكافرين الذين غمر الشك قلوبهم ، قال تعالى : { بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا... } ، وفى الآية جاء الفعل المضارع (تطمئن) مخالفا للماضى (آمنوا) للدلالة على تجدد الاطمئنان واستمراره ، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد .

قال صاحب إعراب القرآن وبيانه : (فقد عدل عن عطف الماضى على الماضى ، فلم يقل : (واطمأنت قلوبهم) لسر من الأسرار يدق إلا على العارفين بأسرار هذه اللغة الشريفة ، ذلك أن من خصائص الفعل المضارع أنه قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال ، وهما الزمانان اللذان يحتملهما المضارع فلا يدل إلى على مجرد الاستمرار ، ومنه هذه الآية ، أى أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بصورة مطردة مهما تتالت المحن ، وتعاقبت الأرزاء وحدثت المفاجأت ، فكأنما أعدوا لكل محنة صبرا ، ولكل زرء اطمئنانا جديدا ، فتدبر هذه الملاحظة فإنها عمود الجمال وسره . [1]

وفى قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ

[1] إعراب القرآن وبيانه : 5 / 120.

فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } (سورة النحل 42)

جاء التعبير في جانب الصبر بالمضي فقال : (الَّذِينَ صَبَرُواْ) وفي جانب التوكّل بالمضارع فقال : (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) إيماء إلى أن صبرهم قد آذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه ، وأن الله قد جعل لهم فرجاً بالهجرة الواقعة , والهجرة المترقّبة ، فهذا بشارة لهم ، وأنّ التوكّل ديدنهم لأنهم يستقبلون أعمالاً جليلة تتمّ لهم بالتوكّل على الله في أمورهم فهم يكرّرونه ، وفي هذا بشارة بضمان النجاح . [1]

ومثل ذلك قوله : { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مشْرِكُونَ } (سورة النحل 98 – 100)

ففى قوله تعالى : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ ...) آثر المولى جل شأنه صيغة الماضى فى الصلة الأولى (الَّذِينَ آمَنُواْ) للدلالة على التحقق وإيثار صيغة الاستقبال فى قوله : (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) لإفادة تجدد التوكل واستمراره .

ففى نفى سلطان الشيطان فى الآية مشروط بالأمرين : الإيمان والتوكل وفى عطف قوله : (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) دون إعادة اسم الموصول إشارة إلى أن الوصفين (الإيمان والتوكل) كصلة واحدة لموصول واحد ؛ لأن المقصود اجتماع الصلتين . [2]

---

[1] التحرير والتنوير : المجلد السابع : جـ 14 / 159 وما بعدها.

[2] ينظر : تفسير أبى السعود : 3 / 140 ، والتحرير والتنوير : المجلد السابع : جـ 14 / 278.

وفى قوله تعالى: (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ...) الآية عطف للجملة الاسمية على الفعلية ، حيث عبّر بالمضارع أولاً (يَتَوَلَّوْنَهُ) للدّلالة على تجدّد التولّي ، أي الذين يجدّدون تولّيه ، للتّنبيه على أنهم كلما تولّوه بالميل إلى طاعته تمكّن منهم سلطانه، وأنه إذا انقطع التولّي بالإقلاع، أو بالتوبة انسلخ سلطانه عليهم.

ثم عطف الجملة الاسمية فقال : (وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) لدلالتها على الدّوام والثّبات ؛ لأن الإشراك صفة مستمرّة لأن قرارها القلب ، بخلاف المعاصي لأن مظاهرها الجوارح ، للإشارة إلى أن سلطان الشيطان على المشركين أشدّ وأدوم لأن سببه ثابت ودائم . [1]

وفى قوله تعالى : { إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} (سورة الأحزاب 10)

جاء قوله : (وَتَظُنُّونَ) بصيغة المضارع عطفاً على جملة (زَاغَتْ الْأَبْصَارُ) وهو ماض ، للدلالة على تجدد تلك الظنون بتجدد أسبابها .

وفي صيغة المضارع معنى التعجيب من ظنونهم , لإدماج العقاب بالامتنان فإن شدة الهلع الذي أزاغ الأبصار , وجعل القلوب بمثل حالة أن تبلغ الحناجر ، دل على أنهم أشفقوا من أن يهزموا لِمَا رأوا من قوة الأحزاب , وضيق الحصار , أو خافوا طول مدة الحرب وفناء الأنفس ... ، أو نحو ذلك من أنواع الظنون وتفاوت درجات أهلها . [2]

ومن السياقات التى يرد فيها التحول للدلالة على إطالة مشهد الحدث ، لما فى ذلك من التخويف والتهويد ، قوله تعالى : { حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير : المجلد السابع : جـ 14 / 278 وما بعدها.

[2] ينظر : المرجع السابق : المجلد العاشر : جـ 21 / 281.

يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } (سورة الحج 31)

إذ حصل فى هذا السياق تحول عن الفعل الماضى (خَرَّ) إلى المضارع (فَتَخْطَفُهُ) و (تَهْوِي) ولم يأت السياق على نمط واحد ، فيكون (خر من السماء فخطفته أو هوت به الريح) كما هو مقتضى الظاهر وذلك أن الفعل الماضى (خَرَّ) يشير فى هذا السياق إلى تحقق حصول الخرور من المشرك لا محالة ، حاله حال الماضى فى تحققه ، فقال : (خَرَّ مِنَ السَّمَاء) وفيه دلالة على سرعة حصول الخرور والسقوط دون تماسك أو انتظام ، ثم تحول إلى المضارع (فَتَخْطَفُهُ) و (تَهْوِي) لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوى الريح به [1] ومجئ الحرف (فى) أفاد هنا الإمعان فى تصوير التسفل والسقوط، وكأن المكان السحيق قد أصبح ظرفا ووعاء له لا ينتهى فيه إلى قرار ، ولو قال: (إلى مكان سحيق) لأفاد انتهاء به إلى منطقة معينة ، وذلك يوحى بالتهديد الشديد والإيعاد لمن كان هذا حاله .

ومثله قوله تعالى : { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } (سورة الحديد 20)

الآية كلام مستأنف مسوق لتحقير الدنيا ، وهوان أمرها ، تزهيدا فيها ، وتنفيرا عن العكوف عليها .

ولقد جاء النظم القرآنى بالفعل الماضى (أعجب) ثم تحول عنه إلى المضارع (يهيج) و (يكون) ولو جاء السياق على مقتضى الظاهر لكان: (

---

[1] ينظر : المثل السائر : 2 / 15 ، علم المعانى دراسة بلاغية ، ص 252.

كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم هاج ثم كان حطاما) لكن التحول عن الماضى إلى المضارع جاء لمنحى دلالى مقصود ، إذ السياق القرآنى تجاوز لحظة الإعجاب بهذا الزرع ، بالإخبار عنها بالزمن الماضى ، وكأنها لحظة مضت دون تريث أو إمهال ، تلاها على الفور مشهد الفناء والزوال ، مخبرا عنه بالزمن الحاضر حتى يظل مشهد الاندثار كأنه حاضر ماثل للعيان ، ولا ينافى ذلك مجئ حرف العطف " ثم " فهو هنا يفيد التراخى الرتبى لا الزمن [1] ، إذ يوحى المشهد بالتدرج من لحظة السرور والفرح بهذا النبات ، إلى مرحلة شديدة على النفس متمثلة فى هيجان الزرع وذيوله ، تليها مرحلة أشد من سابقتها وهى مرحلة الاصفرار والاحتضار .

وترد المخالفة للتركيز على نتيجة الحدث نفسها ، من ذلك قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } (سورة الحج 63) ، الآية انتقال إلى التذكير بنعم الله تعالى على الناس والخطاب فيها لكل من تصلح منه الرؤية ؛ لأن المرئى مشهور .

وفى التعبير عن مصير الأرض خضراء بصيغة المضارع (فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) مع أن ذلك مفرع على فعل (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء) الذى هو بصيغة الماضى ، لأنه قصد من المضارع استحضار تلك الصورة العجيبة الحسنة ولإفادة بقاء أثر إنزال المطر زمانا بعد زمان ، كما تقول : أنعم فلان على فأروح وأغدو شاكرا له، ولو قلت: فرحت وغدوت، لم يقع ذلك الموقع، والفعل (فَتُصْبِحُ) بمعنى تصير وقد جاء مرفوعا ، ولم ينصب جواباً للاستفهام , لأنه لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ؛ لأنّ معناه إثبات الاخضرار ، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار ، مثاله : أن تقول لصاحبك : ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر ,

---

[1] التحرير والتنوير : المجلد الثالث عشر : جـ 27 / 405.

إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك لتفريطه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر . [1]

يقول ابن الأثير : (ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي ههنا إلى المستقبل فقال (فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) ولم يقل (فأصبحت) عطفاً على (أنزل) وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمانِ فإنزال الماء مضى وجودهِ , واخضرار الأرض باق لم يمضِ وهذا كما تقول: أنعم علي فلان فأروح وأغدو شاكراً لهِ ، ولو قلت : فرحت وغدوت شاكراً لهِ ، لم يقع ذلك الموقع ؛ لأنه يدل على ماض قد كان وانقضى ، وهذا موضع حسن ينبغي أن يتأمل) . [2]

ومثله قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (سورة الحج 65)

الآية أيضا – تذكير بنعمة تسخير الحيوان وغيره ، وفيها إدماج الاستدلال على انفراده تعالى– بالتسخير ، والتقدير ، فهو الخالق الحق ولقد جاء النظم متحولا عن الماضى (سَخَّرَ) إلى المضارع (يُمْسِكُ) وفى اختيار صيغة الماضى (سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ) للدلالة على أن الرؤية الباعثة على التأمل والاعتبار لا تتعلق بتلك الأحداث بذاتها بل بنتائجها ، أو آثارها المترتبة عليها، وكذلك فعل " التسخير " ليس المقصود منه نفسه ، وإنما مظاهر هذا الفعل وآثاره ، ومن أهمها إمساك السماء بغير عمد .

يقول الطاهر بن عاشور : (ومناسبة عطف إمساك السماوات على تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك ، أن إمساك السماء عن أن تقع على الأرض

---

[1] يراجع : الكشاف : 3 / 164 ، التفسير الكبير : 11 / 317 ، 318 ، وأبو السعود : 3 / 117.

[2] المثل السائر : 2 / 15 ، الطراز للعلوى : 2 / 138 وما بعدها.

ضرب من التسخير لما في عظمة المخلوقات السماوية من مقتضيات تغلّبها على المخلوقات الأرْضية ، وحطْمِها إياها لولا ما قدر الله تعالى لكل نوع منها من سُنن ونُظم تمنع من تسلط بعضها على بعض ...) . [1]

ومن دلالات التحول فى الفعل المضارع : الدلالة على كثرة وقوع الفعل وتكراره كما فى قوله تعالى : {ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } (سورة غافر 12)

فالخطاب فى الآية الكريمة موجه للكافرين الذين يبادرون يوم القيامة بالاعتراف بذنوبهم آملين فى الخلاص مما يحيق بهم من عذاب ، { قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ } [2]

ونلاحظ العدول فى فعلى الشرط والجواب من صيغة الماضى فى الجملة الأولى (دعى – كفرتم) إلى صيغة المضارع فى الثانية (يشرك – تؤمنوا) وذلك لدلالة الفعلين المضارعين على تكرر ذلك منهم فى الحياة الدنيا ، فإن لتكرره أثرا فى مضاعفة العذاب لهم , ومن ثم جاءت المخالفة فى الآية مؤدية دورها فى تسفيه هذا الاعتراف ، وتقويص ذلك الأمل ، وإيثار (إذا) مع فعل الدعوة إلى التوحيد ، و (إن) مع فعل الإشراك مواجهة لهؤلاء الكفار بمدى ما كانوا عليه من ضلال فى الدنيا ، حيث كانوا يستجيبون فيها لأدنى هاجس بالشرك فى الوقت الذى يزيغون فيه عن دعوة التوحيد التى تقرع أسماعهم . [3]

ففى العدول بين فعلى الشرط والجواب من صيغة الماضى فى الجملة الأولى إلى صيغة المضارع فى الجملة الثانية ، وما ترتب عليه من المواءمة بين

---

[1] التحرير والتنوير : المجلد الثامن : جـ 17 / 322 وما بعدها.

[2] سورة غافر (11).

[3] ينظر : أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية ، ص 136.

الصيغة الأولى و – إذا – والصيغة الثانية و (إن) وفى هذا وذاك – كما ذكر أبو السعود – ما لا يخفى من الدلالة على كمال سوء حالهم فى الدنيا ، ثم الدلالة بالتالى على أن لا سبيل إلى الخروج أبدا . [1]

ومثل ذلك – أيضا – قوله تعالى : { فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } (سورة الأعراف 131)

الآية بيان وتشخيص وتقريع لأهل فرعون وما حل بهم من العذاب [2] وفى التعبير في جانب الحسنة بالمجئ (جاءتهم) ؛ لأن حصولها مرغوب ، فهي بحيث تُترقب كما يُترقَب الجائي ، وعبر في جانب السيئة بالإصابة (تصبهم) لأنها تحصل فجأة من غير رغبة ولا ترقب , وجئ في جانب الحسنة بإذا والفعل الماضى (جاءتهم) ؛ لأن الغالب في (إذا) الدلالة على اليقين بوقوع الشرط ، أو ما يقرب من اليقين، كقولك : إذا طلعت الشمس فعلتُ كذا ، ولذلك غلب أن يكون فعل الشرط مع (إذا) فعلاً ماضياً ، لكون الماضي أقرب إلى اليقين في الحصول من المستقبل [3] كما فى الآية .

وجئ في جانب السيئة بحرف " إنْ " والفعل المضارع (تصبهم) ؛ لأن الغالب أن تدل (إنْ) على التردد في وقوع الشرط ، أو على الشك ، ولكون الشيء النادر الحصول غير مجزوم بوقوعه ، ومشكوكاً فيه ، جئ في شرط إصابة السيئة بحرف (إنْ) لندرة وقوع السيئات أي : المكروهات عليهم ،

---

(1) تفسير أبى السعود : 4 / 270.

(2) نظم الدرر للبقاعى : 3 / 89.

(3) ينظر : البرهان للزركشى : 4 / 200 وما بعدها ، ت / محمد أبو الفضل ، ط عيسى الحلبى ، والتحرير والتنوير : المجلد الخامس : جـ 9 / 64.

بالنسبة إلى الحسنات وفي ذلك تعريض بأن نعم الله كانت متكاثرة لديهم , وأنهم كانوا معرضين عن الشكر , وتعريض بأن إصابتهم بالسيئات نادرة , وهم يعدون السيئات من جراء موسى ومن آمن معه ، فهم في كلتا الحالتين بين كافرين بالنعمة , وظالمين لموسى ومن معه ، ... ولهذين الاعتبارين عُرفت الحسنة تعريف الجنس ؛ لأن هذا الجنس محبوب مألوف كثير الحصول لديهم، ونكرت (سيئة) لندرة وقوعها عليهم ، ولأنها شئ غير مألوف حلوله بهم . [1]

[1] ينظر : الكشاف : 2 / 139 ، التحرير والتنوير ألموضع نفسه ، وأسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية ، ص 134 وما بعدها.

المبحث الثانى

الأسرار البلاغية لمخالفة الماضى للمضارع

يقول ابن الأثير : (وأما الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فهو عكس ما تقدم ذكرهِ ، وفائدته : أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل – مخالفة الماضى للمضارع – الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجادهِ ؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجدِ ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها).[1]

والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي ، أن الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورتهِ ، ليكون السامع كأنه يشاهدهِ ، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد . [2]

وقد عنى البلاغيون والمفسرون بالإبانة عن دلالات هذه المخالفة وذهبوا إلى أن السياق هو الذى يحدد الدلالة المناسبة .

ومن هذه الدلالات التى يقتضيها السياق : الدلالة على أن الفعل سابق للمضارع فى التحقق والحصول ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } (سورة يوسف 41)

وقوله تعالى : { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ } (سورة يوسف 47)

فالفعلان (يسقى ويصلب) يشيران إلى مستقبل ينطلق من الزمن الحاضر

---

(1) المثل السائر لابن الأثير : 2 / 15.

(2) المرجع السابق : 2 / 16.

بالنسبة للقصة ، أما الفعل (قضى) فإنه لم يكتف بالدلالة على ما يستقبل من الزمن بل أريد له أن يؤدى نكتة بلاغية مؤداها تنزيل توقعات يوسف – عليه السلام – ورؤياه للمستقبل – حوادث المستقبل منزلة الأحداث الماضية، وكأنها واقعة فعلا.

ومن هذا القبيل من الأفعال التى تستبق الأحداث ، وهى ما يسميها بعض النقاد الغربيين (استشراف المستقبل) ما جاء على لسان سيدنا يوسف – عليه السلام – وهو يفسر رؤيا الملك هذه المرة ويتوقع ما سوف تتعرض له أرض مصر من خصب وجدب فى السنين المقبلة ، قال تعالى : { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ ... } الآية , فالفعل (تزرعون) وهو مضارع ، والفعل (حصدتم) وهو ماض يقفزان وراء أسوار القصة ويضعان الأحداث على مسافة سبع سنين من الزمن الآتى . [1]

ومن أمثلة ذلك – أيضا – قوله تعالى : { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا } (سورة الكهف 47)

الآية عطف على قوله : { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... } [2] فبعد أن بين لهم تعرض ما هم فيه من نعيم إلى زوال على وجه الموعظة أعقبه بالتذكير بما بعد ذلك الزوال بتصوير حال البعث وما يترقبهم فيه من العقاب على كفرهم به [3] وفى النظم الكريم جاء قوله : (وَحَشَرْنَاهُمْ) بلفظ الماضى بدلا من (ونحشرهم) فقبله فعلان مضارعان وهما (نسير وترى) ولكنه عدل عن المضارع إلى التعبير بلفظ الماضى ، دلالة على تحقق وقوع الحشر ، وأنه لتحققه

---

(1) ينظر : الزمن فى القرآن الكريم ، د / بكرى عبد الكريم ، ص 380 ، 381 ، ط دار الكتاب الحديث 1421هـ 2001م.

(2) سورة الكهف (45).

(3) ينظر :التحرير والتنوير : المجلد السابع : جـ 15 / 334.

والجزم بوقوعه كان جديرا أن يعبر عنه بلفظ الماضى الذى يدل على تحقق الوقوع فى الزمن الماضى.

قال أبو حيان فى شرح قوله: { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ... } قيل : وحشرناهم ، وعرضوا ، ووضع الكتاب ، فما وضع فيه الماضى موضع المستقبل لتحقق وقوعه ، أى أن : عرضوا ، وحشرناهم ، جاءت بلفظ الماضى للدلالة على أن يوم العرض واقع لا محالة ، فجاءت الأفعال الدالة على الماضى تصور الأحداث وكأنها وقعت فعلا . [1]

وقيل : جئ بـ (حشرناهم) ماضياً بعد قوله (نسير) للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال والعظائم ، كأنه قيل : (وَحَشَرْنَاهُمْ) قبل ذلك . [2]

ومن ذلك – أيضا – قوله تعالى : { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } (سورة النحل 89)

جاءت هذه الآية فى سياق ذكر بعث الأنبياء والرسل شهداء على قومهم ، وتخصيص خاتم الرسل – ﷺ – بمزيد عناية وتكريم بأن جعله الله – ﷻ – شهيدا على هذه الأمم كلها، وهو ما ذهب إليه بعض المفسرين [3] ويدل على هذه العناية – أيضا – التحول إلى الخطاب للرسول – ﷺ – بعد الإخبار عن البعث بالغيبة (وجئنا بك) والتحول المعجمى عن كلمة البعث إلى المجئ، وفى إيثار

---

[1] البحر المحيط لأبى حيان: 6 / 134 ، فن البلاغة ، ص 288 ، وخصائص التراكيب ص 207.

[2] أبو السعود : 3 / 226.

[3] ينظر : التحرير والتنوير : المجلد السابع : جـ 14 / 250.

لفظ المجئ على البعث، لكمال العناية بشأنه – ﷺ – .[1]

وفى التحول الذى نحن بصدده عن الفعل المضارع (نبعث) إلى الماضى (جئنا) إشعار بأفضليته – ﷺ – على سائر المرسلين وأفضلية شهادته فى هذا اليوم على شهاداتهم ، وأنه لهذا وذاك يجاء به شاهدا قبل بعث هؤلاء الرسل فى أممهم شهداء، لقد أفاد التحول إلى الماضى فى هذا السياق، أن الفعل الماضى سابق للمضارع فى تحققه وحصوله .

ومن السياقات القرآنية التى تدل المخالفة فيها إلى الماضى على سرعة تحقق الفعل وحدوثه، قوله تعالى: { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ ينقُضُونَ الْمِيثَاقَ* وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمّارَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} (سورة الرعد 20 : 22)

جاءت الصلات فى قوله: (الَّذِينَ يُوفُونَ) و (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ) وما عطف عليهما بصيغة المضارع، لإفادة التجدد كناية عن الاستمرار وجاءت صلة (وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ...) وما عطف عليها وهو (وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ) بصيغة المضى لإفادة تحقق هذه الأفعال الثلاثة لهم ، وتمكنها من أنفسهم تنويها بها ، لأنها أصول لفضائل الأعمال .

يقول أبو حيان : (وجاءت الصلة هنا بلفظ الماضي في الموصولين قوله تعالى : (وَأَقَامُواْ – وَأَنفَقُواْ) وبلفظ المضارع في قوله : (يَصِلُونَ – وَيَخْشَوْنَ) على سبيل التفنن في الفصاحة ، ويبرز هذا التغيير فى الصيغتين من (أَقَامُواْ –

[1] تفسير أبى السعود : 3 / 135.

وَأَنفَقُواْ) إلى قوله : (يَصِلُونَ – وَيَخْشَوْنَ) [1]، ثم أعيد أسلوب المخالفة والمغايرة وذلك بالتعبير بالمضارع في قوله : (وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ ...) المعطوف على قوله: (الَّذِينَ صَبَرُواْ – وَأَقَامُواْ – وَأَنفَقُواْ) ، وذلك لاقتضاء المقام إفادة التجدد , إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يُحرص عليه ؛ لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت ، فوُصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيّئات بالحسنات . [2]

وهذه الصلات (يُوفُونَ – وَلاَ ينقُضُونَ – يَصِلُونَ – وَيَخْشَوْنَ) صفات لأولى الألباب ، فعطفها من باب عطف الصفات للموصوف الواحد وليست من عطف الأصناف ، وفى إعادة اسم الموصول (الَّذِينَ) وما عطف عليه من الأسماء الموصولة ، للدلالة على أن صلاتها خصال عظيمة تقتضي الاهتمام بذكر من اتصف بها ، ولدفع توهم أن عقبى الدار لا تتحقق لهم إلا إذا جمعوا كل هذه الصفات . [3]

ولنتأمل قوله تعالى : { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } (سورة النحل 28)

حيث جاء التعبير بالفعل المضارع (تَتَوَفَّاهُمُ) ليفيد استحضار صورة توفيهم إياهم ، لما فيها من الهول ، وجاء قوله (فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ) معطوفا عليه وهو فعل ماض ليفيد تحقق الوقوع .

يقول أبو السعود : (... والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم إياهم لما فيها من الهول , وفائدة ذلك : تخصيص الخزي والسوء بمن

---

(1) البحر المحيط لأبى حيان : 3 / 385 وما بعدها.

(2) التحرير والتنوير : المجلد السابع : جـ 13 / 126 ، 128 وما بعدها.

(3) المرجع السابق ، الموضع نفسه.

استمر كفره إلى حين الموت دون من آمن منهم ولو في آخر عمره أي على الكافرين المستمرين على الكفر إلى أن يتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم أي حال كونهم مستمرين على الكفر فإنه ظلم منهم لأنفسهم وأي ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبديلا ، وقوله : (فألقوا السلم) أي فيلقون والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى { ... وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ... } [1] وما بينهما جملة اعتراضية جيء بها تحقيقا لما حاق بهم من الخزي على رؤوس الأشهاد أي فيسالمون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه في الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين ما كنا نعمل في الدنيا من سوء أي من شرك . [2]

وأيا ما كان المعطوف عليه (ويقول) أو (تَتَوَفَّاهُمُ) فهو فعل مضارع ، والمعطوف فعل ماض (فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ) إذن فالمخالفة التعبيرية متحققة ، وهى تصف حالة الذين يموتون على الشرك ، وهى حال تعرض لجميعهم سواء منهم من أدركه الاستئصال ، ومن هلك قبل ذلك ، ووصفهم بـ (ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ) يرمى إلى أن توفى الملائكة إياهم ملابس لغلظة وتعذيب [3] قال تعالى : { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ... } . [4]

ومن السياق التى تدل المخالفة فيها على سرعة تحقق الفعل وحدوثه قوله تعالى : { وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ } (سورة النمل 87)

---

(1) سورة النحل (27).

(2) ينظر : تفسير أبى السعود : 3 / 108.

(3) ينظر : التحرير والتنوير : المجلد السابع : جـ 14 / 138 وما بعدها.

(4) سورة الأنفال (50).

فقد تحول السياق القرآنى عن الفعل المضارع (يُنفَخُ) إلى الماضى (فَفَزِعَ) وكان مقتضى الظاهر للسياق أن يجرى على نسق واحد ، فيكون (فيفزع) لأن الحدث لم يقع بعد ، وإنما هو حديث عن المستقبل البعيد ، وهو يوم القيامة فدل التحول إلى الماضى على سرعة تحقق الفعل وحصوله ، مثل تحقق الماضى فى حدوثه ، وفى هذا مزيد تأكيد لأمر البعث والنشور ، ودلالة على السرعة والدهشة والذهول ، بدلالة مجئ حرف العطف الفاء .

يقول العلماء : وفى الآية إخبار بالفعل الماضى عن المستقبل حيث قال: (فَفَزِعَ) بلفظ الماضى بدلا من (يفزع) بلفظ المضارع، وذلك لنكتة بلاغية وهى: أن الفزع عند النفخ فى الصور أمر محقق لا شك فيه وحال الخلق حال خوف ورهبة ، وهذا شئ مقطوع به لا يرقى إليه الظن ، ولما كان أمرا محققا لا يصح أن ينازع فيه أحد عبر عنه بلفظ الماضى الذى يدل على أن الأمر قد حدث بالفعل وكذا الحال فى الفعل (أَتَوْهُ) والمراد (يأتونه) .[1]

وقال صاحب الكشاف : (فإن قلت : لم قيل: (فَفَزِعَ) دون فيفزع ؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته , وأنه كائن لا محالة ، واقع على أهل السموات والأرض ؛ لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به . والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون) .[2]

ومنه قوله تعالى : { لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا } (سورة الأحزاب 8) حيث عطف الماضى (وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ) على المضارع (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ) وغير فيها الأسلوب , للدلالة على تحقق عذاب

---

[1] ينظر : التفسير الكبير : 12 / 240 ، البحر المحيط : 7 / 99 ، المثل السائر : 2 / 16 إعراب القرآن وبيانه : 7 / 264.

[2] الكشاف : 3 / 373 ، البحر المحيط : 7 / 99.

الكافرين حتى لا يتوهم أنهم يسألون سؤال من يُسْمَع جوابُهم أو معذرتُهم ، ولإفادة أن إعداد عذابهم أمر مضى وتقرر في علم الله تعالى . [1]

ومن ذلك – أيضا – قوله تعالى : { إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ } (سورة الممتحنة2)

فى الآية جاء الفعل (ودَّ) فى قوله تعالى : (وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) بصيغة الماضى وفى هذا مخالفة لما قبله حيث جاء فعل الشرط (يَثْقَفُوكُمْ) والجواب (يَكُونُوا) بصيغة المضارع ، ويوضح هذا العلامة الزمخشرى بقوله : (فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله ، ثم قال (وَوَدُّواْ) بلفظ الماضي ؟ قلت : الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب ، فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم يعني : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً : من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ، وردّكم كفاراً ؛ وردكم كفاراً أسبق المضارّ عندهم ، وأوّلها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم) [2] ، وبهذا قال الرازى فى تفسيره .[3]

فالزمخشرى يفصح على أن الودادة سابقة فى القدم قبل الظفر والإدراك فعبر عنها بالماضى .

ولكن السكاكى نظر إلى أن الفعل الماضى محقق الوقوع، فعبر (بود) بدل (يود)، قال السكاكى عقب الآية : ترك (يودوا) إلى (ودوا) الماضى ، إذ لم يحتمل ودادة كفرهم من الشبهة ما احتمل العداوة لباسطى الأيدى والألسنة ،

---

(1) التحرير والتنوير : المجلد العاشر : جـ 21 / 276.

(2) الكشاف : 4 / 500.

(3) التفسير الكبير : 15 / 496.

يعنى الودادة أو إظهارها لتحققها عند المؤمنين عبر عنها بلفظ الماضى . [1]

والخطيب القزوينى لم يرتض من الزمخشرى عطف (وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) على جواب الشرط وقال : فيه نظر ، وذلك لأن ودادتهم كفارا حاصلة وإن لم يظفروا بهم ، فلا يكون تقييدها بالشرط فائدة . [2]

فالأولى أن يجعل قوله : (وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) عطفا على الجملة الشرطية هذا ما قاله أبو حيان فى البحر والسعد فى المطول . [3]

ولكن هذا لا يخلو من نقد ، فمثل هذا النقد يتوجه على قوله: (يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء) لثبوت عداوتهم ظفروا أولا ، ولا يمكن فيه هذا التوجيه ولعل الوجه الأقرب إلى الصواب : أن يراد إظهار الودادة وإجراء ما تقتضيه ، وكذا الحال فى كونهم أعداء . [4]

وفى قوله تعالى : { يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا } (سورة النبأ 19)

قوله : (وَفُتِحَتِ السَّمَاء) جملة هى حال من ضمير (تأتون) والتقدير : وقد فتحت أى قد حصل النفخ قبل ذلك أو معه ، ويجوز أن يكون قوله (وَفُتِحَتِ السَّمَاء) معطوفة على جملة (يُنفَخُ فِي الصُّورِ) وبذلك يكون الفعل الماضى (فتح) جاء مخالفا للفعل المضارع قبله وهو (ينفخ) والسر فى التعبير

---

(1) مفتاح العلوم للسكاكى ، ص 104.

(2) الإيضاح للقزوينى : 2 / 124 ، شرح / محمد عبد المنعم خفاجى ، ط المكتبة الأزهرية ثالثة 1413هـ.

(3) البحر المحيط لأبى حيان : 8 / 252 ، المطول للسعد ، ص 165 ، ط تركيا.

(4) ينظر : دراسات بلاغية فى الآيات القرآنية من كتاب الإيضاح ، د / أحمد عكاشة : 2 / 204 ، ط الأمانة ، ط أولى 1996م.

بالفعل الماضي على هذا الوجه لتحقيق وقوع هذا التفتيح ، حتى كأنه قد مضى وقوعه [1] وبُني الفعل (ينفخ) إلى النائب لعدم تعلق الغرض بمعرفة النافخ وإنما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم وصورة حصوله.[2]

ومن السياقات القرآنية التى يرد فيها التحول إلى الماضى للدلالة على الاستمرار ، قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (سورة لقمان 29)

الآية الكريمة استدلال على ما تضمنته الآية قبلَها [3] من كون الخلق الثاني وهو البعث في متناول قدرة الله – تعالى – وبأنه قادر على تغيير أحوال ما هو أعظم حالاً من الإنسان ، وذلك بتغيير أحوال الأرض وأُفقها بين ليل ونهار في كل يوم وليلة تغييراً يشبه طرو الموت على الحياة في دخول الليل في النهار ، وطرو الحياة على الموت في دخول النهار على الليل، وبأنه قادر على أعظم من ذلك بما سخره من سير الشمس والقمر . [4]

كما أن الآية تثبت كروية الأرض ، وأنها تدور حول نفسها ، وذلك بإثبات ما يحدث نتيجة لهذا الدوران .

وفى الآية الكريمة جاء قوله: (يُولِجُ) بصيغة المضارع، وقوله : (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) بصيغة الماضى ، فخولف بين الصيغتين ؛ لأن إيلاج الليل فى النهار أمر يتجدد كل فصل ، بل كل يوم ، فعبر عنه بالصيغة المتجددة

---

(1) التحرير والتنوير : المجلد الخامس عشر: جـ 30 / 32 ، تفسير أبى السعود : 5 / 89.

(2) المرجع السابق الموضع نفسه.

(3) وهو قوله : { مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... } (سورة لقمان 28).

(4) ينظر : التحرير والتنوير : المجلد العاشر : جـ 21 / 184.

الدالة على الاستمرار ، وأما تسخير الشمس والقمر فهو أمر مستمر ، لا يتجدد، ولا يتعدد ، بل هو ديمومة متصلة متتابعة فعبر عنه بالصيغة الماضية الكائنة[1], وإنما التعدد والتجدد ففى آثاره (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) كما يشير إلى ذلك قوله : (كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) [2] ولعل هذا هو السر فى كون التسخير يأتى فى القرآن الكريم بصيغة الماضى نحو: (سخر) [3] و(سخرها) [4] و(سخرنا) [5] و(سخرناها). [6]

ونجد قوله : (كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) يخالف ما جاء فى سور الرعد وفاطر والزمر حيث جاء قوله : (كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى) [7] باللام دون إلى والفرق هو : أن الأول (إلى) للانتهاء ، والثانى (اللام) للاختصاص ، وكل واحد منهما واقع موقعه ، ملائم لصحة الغرض الذى هدف إليه ؛ لأن قوله: (يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) معناه : يبلغه وينتهى إليه ، وقوله : (كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى) معناه : يجرى لإدراك أجل مسمى .

فما ينتهى هنا غاية ما ينتهى إليه الخلق فناسب ذكر (إلى) وما فى فاطر والزمر والرعد ، ليس من هذا الوادى ، فناسب ذكر اللام ، وهذا من

---

(1) ينظر : التفسير الكبير : 12 / 526 ، وإعراب القرآن وبيانه : 7 / 565.

(2) أبو السعود : 4 / 76 ، ومن أسرار البيان فى سورة لقمان ، ص 230.

(3) كما فى هذا المقام ، وكما فى سورة الرعد (2) ، وإبراهيم (32 – 33) ، والنمل (12 – 14) ، والحج (65) ، والعنكبوت (61) ، ولقمان (20) ، والزمر (5) ، والزخرف (13) ، وغير ذلك.

(4) كما فى سورتى : الحج (37) ، والحاقة (7).

(5) كما فى سورتى : الأنبياء (79) ، وص (18 ، 36).

(6) كما فى سورة الحج (36).

(7) كما فى سور : الرعد (2) ، وفاطر (13) ، والزمر (5).

الدقائق البديعة . [1]

ومثل ذلك قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ } (سورة الشورى 28)

الآية الكريمة عطف على قوله : (وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء ...) [2] فإن الغيث سبب رزق عظيم , وهو ما ينزله الله بقدر هوَ أعلم به ، وفيه تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس التي منها معظم رزقهم الحقيقي لهم ولأنعامهم [3] ومجئ الفعل (يُنَزِّلُ) بصيغة المضارع ، لإفادة تكرر التنزيل وتجدده فهو للدلالة على التجدد الاستمرارى لهذه المنة العظيمة التى يتجدد دائما تفضل الخالق على خلقه بها

والتعبير بالماضى فى قوله : (مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا) للإشارة إلى حصول القنوط وتقرره بمضى زمان عليه ، ومجئ فعل الإنزال على صيغة التفعيل, للدلالة على التكثير والتعظيم قضاء لحق المبالغة فى إظهار امتنان العلى – سبحانه – بهذه النعمة العظيمة التى تتوقف حياة الإنسان عليها ، بل لا غنى لأى كائن حى عنها .

ولنتأمل – أيضا – قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ } (سورة فاطر 29)

فالمراد بـ (الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ) المؤمنون به ؛ لأنهم اشتهروا بذلك

---

[1] ينظر : التحرير والتنوير : المجلد العاشر : جـ 21 / 184 وما بعدها ، وإعراب القرآن وبيانه : 7 / 566 ، حاشية زادة على البيضاوى : 4 / 41.

[2] سورة الشورى (27).

[3] ينظر : التحرير والتنوير : المجلد الثانى عشر : جـ 25 / 95.

وعرفوا به ، ومعنى (يَتْلُونَ) أى يداومون على تلاوته أو قراءته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنوانا ، وكتاب الله هو القرآن الكريم ، وفى العدول عن اسمه العلم إلى اسم الجنس (كِتَابَ اللَّهِ) المضاف لاسم الجلالة ، لما فى إضافته إليه من تعظيم شأنه . [1]

وفى إيثار صيغة المضارع (يتلون) دلالة على استمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه ، واستتباعهما لما سيأتى من توفية الأجور وزيادة الفضل.

وفى قوله : (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا) جئ بالفعل الماضى معطوفا على المضارع (يتلون) وفى هذا مخالفة بين الصيغتين ، وذلك لأن فرض الصلاة والصدقة قد تقرر , وعملوا به , فلا تجدد فيه ، وامتثال الذي كلفوا به يقتضي أنهم مداومون عليه [2] لذا جاء بالمضارع (يتلون) وبالماضى فى جانب إقامة الصلاة والإنفاق .

ومن السياقات القرآنية التى يرد فيها التحول إلى الماضى للدلالة على استحضار صورة الحدث ، وتحقق حدوث الفعل وحصوله ، قوله تعالى: { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ } (سورة الأنفال 9)

تشير الآية الكريمة إلى دعاء النبي – ﷺ – يوم بدر ، أخرج الترمذي عن عمر بن الخطاب قال : نظر نبى الله – ﷺ – إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً , فاستقبل نبى الله – ﷺ – القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لي ما وعدتني , اللهم إن تَهْلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض , فما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبل القبلة

---

[1] التحرير والتنوير : المجلد الحادى عشر : جـ 12 / 305 وما بعدها.

[2] المرجع السابق الموضع نفسه ، تفسير أبى السعود : 4 / 152.

حتى سقط رداؤه عن منكبيه , فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمَه من ورائه ، فقال : يا نبى الله كفَاك مُناشَدَةُ ربّك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ ...) . [1]

وفى الآية جاء الفعل (فَاسْتَجَابَ) ماضيا لفظا ومعنى، ومعطوفا على الفعل المضارع (تَسْتَغِيثُونَ) فيما أن الاستجابة التى هى تالية فى الزمن لـ (تَسْتَغِيثُونَ) قد حدثت وأصبحت فعلا ماضيا حقيقة ، فبالأحرى أن يكون الفعل (تَسْتَغِيثُونَ) قد جاء بمعنى المضى كذلك ، لكن المخالفة هذه بين الفعلين جاءت لسر بلاغى يوضحه أبو السعود فى تفسيره بقوله : (وصيغة الاستقبال فى : (تَسْتَغِيثُونَ) لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة ثم قال ، وقوله : (فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) عطف على (تَسْتَغِيثُونَ) داخل معه فى حكم التذكير لما عرفت أنه ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة) . [2]

ومثله قوله تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ } (سورة هود 96 – 98)

معنى الآية : أن فرعون كان قدوة لقومه في الضلال حال ما كانوا في الدنيا وكذلك مقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ، أو يقال كما تقدم قومه في الدنيا فأدخلهم في البحر وأغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم [3] وهى استئناف لبيان حاله فى الآخرة ، أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره ، وسوء عاقبته .

---

[1] الكشاف : 2 / 194.

[2] تفسير أبو السعود : المجلد الثانى : 2 / 8 بتصرف.

[3] التفسير الكبير : 8 / 607.

ولقد تحول السياق عن المضارع (يقدم) إلى الماضى (فأوردهم) ولو جرى على مقتضى الظاهر لكان على النحو التالى : سيقدم قومه يوم القيامة وسيوردهم النار ؛ لأن الحديث عن زمن مستقبل وهو يوم القيامة ، وفى التحول إلى الماضى (فأوردهم) فيه دلالة على القطع والتأكيد بوقوع الحدث وحصوله يقول الزمخشرى : (فإن قلت : هلا قيل : يقدم قومه فيوردهم ؟ ولم جئ بلفظ الماضي ؟ قلت : لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به ، فكأنه قيل : يقدّمهم فيوردهم النار لا محالة . [1]

فمخالفة الماضى (فأوردهم) للمضارع (يقدم) تدل على غاية المبالغة فى تحقيق وقوع ذلك الإيراد (فأوردهم) وهذا النوع من التحول يخبر عن نتائج محققة لأحداث سابقة لها ، تحمل طابع الدهشة والمفاجأة .

وتأتى مخالفة الماضى للمضارع للدلالة على الرغبة فى حصول الحدث وتحققه ومن ذلك قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (سورة البقرة 159 – 160)

قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى أحبار اليهود الذين كتموا ما فى التوراة من صفات الرسول – ﷺ – ودينه الخاتم ، ودلائل صدق نبوته . [2]

وقد حصل التحول فى الآية عن الفعل المضارع الواقع فى جملة الصلة (الَّذِينَ يَكْتُمُونَ) إلى الماضى فى قوله (تابوا) وما عطف عليه من قوله : (وأصلحوا وبينوا) ولو جاء السياق على أصله فى مقتضى الظاهر

---

[1] الكشاف : 2 / 410 ، البحر المحيط : 7 / 259.

[2] ينظر : التفسير الكبير : 2 / 56 ، تفسير أبى السعود : 1 / 182.

لكان (إلا الذين يتوبون ويصلحون) فيأتى فعلا مضارعا دالا على الاستقبال، لا سيما أن قوله (يكتمون) يراد به الاستقبال ، إلا أن مجئ التحول إلى الفعل الماضى أفاد الحث على التوبة والحض على الإصلاح والتبيين ، فالماضى يدل على تحقق وقوع الفعل وحصوله وكأنه يخبر عن توبة قد حصلت منهم ، وإصلاح قد كان ، أو هكذا ينبغى أن يكون .

وأما التعبير بالفعل المضارع (يكتمون) فيرى الطاهر بن عاشور : أنه للدلالة على أنهم – أى علماء اليهود – في الحال كاتمون للبينات والهدى ، ولو وقع بلفظ الماضي لتوهم السامع أن المعني به قوم مضوا مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين) . [1]

ومن السياقات التى يرد فيها التحول إلى الماضى للدلالة على إظهار الرغبة فى حصول الفعل ، قوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ } (سورة البقرة 215)

لقد حصل التحول عن المضارع (يُنفِقُونَ) إلى الماضى (أَنفَقْتُم) ولو جرى السياق على مقتضى الظاهر لكان: (يسألونك ماذا ينفقون قل ما تنفقون...) لأن الجواب جاء بأسلوب الشرط ، والشرط يقتضى الاستقبال ، والنحاة يؤولون فعل الشرط الماضى بالاستقبال ولكن القصد من مجئ الشرط ماضيا ، وإن كان معناه الاستقبال هو إنزال غير المتيقن منزلة المتيقن، وغير الواقع منزلة الواقع.[2]

---

[1] التحرير والتنوير : 2 / 66.

[2] ينظر : الكشاف : 1 / 254 ، التفسير الكبير للرازى : 3 / 289 ، والتحرير والتنوير : 2 / 317.

ومما سبق ذكره يتضح لنا سر التحول إلى الفعل الماضى فى الشرط فى قوله تعالى : (مَا أَنفَقْتُم) وإن كان مستقبلا فى معناه ،وذلك لإظهار الرغبة فى حصوله ،وحثهم على فعله ، فكأنه حاصل منهم متقرر ، متجاوزا مسافة الزمن فى ذلك ليشد الانتباه إلى حقيقة الحدث نفسه وهو الإنفاق ، مشيرا إلى وجوه مصارفه الحقة ليصرف عن النفس أدنى تردد أو شح فى الإنفاق والعطاء .

وفى قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } (سورة لقمان 12)

جاء السياق ذاكرا الشكر بصيغة المضارع (وَمَن يَشْكُرْ) ثم تحول عنه إلى الماضى بقوله : (وَمَن كَفَرَ) فدل المضارع فى الحالة هذه على التجدد والاستمرار للحث على تجدد الشكر واستمراره ، ومحاولة الوصول فيه إلى مرتبة من الكمال والتمام ، ثم تحول عن ذلك فى التعبير عن الكفر بالماضى (وَمَن كَفَرَ) تغييبا لحدث الكفر ، وعدم التوقف عنده رغبة للانصراف عنه والترك .

يقول الرازى : قال في الشكر (وَمَن يَشْكُرْ) بصيغة المستقبل ، وفي الكفران (وَمَن كَفَرَ ...) ، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد ، كقول القائل : من دخل داري فهو حر ، ومن يدخل داري فهو حر، فنقول: فيه إشارة إلى معنى ، وإرشاد إلى أمر ، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغي أن يكرر ، والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفر . [1]

وبمثل هذا قال الألوسى ، والبقاعى [2] ، إذاً فالسياق سياق ترغيب وحث

---

[1] ينظر : التفسير الكبير : 12 / 505.

[2] ينظر: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لأبى الحسن البقاعى: 159/15،ط وزارة المعارف الهندية، ط أولى 1400هـ 1980م، وروح المعانى للألوسى: 84/21

على الطاعة والشكر ، وتنفير من الشرك والكفر .

ويرد التحول إلى الماضى للدلالة على الاختصاص بوصف ثابت ، من ذلك قوله تعالى : { وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } (سورة الأعراف 170)

فالمراد بـ (الَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ) : الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى – فلم يحرفوه وقال عطاء : هم أمة محمد – ثناء عليهم بأنهم الفائزون فى الآخرة ، وتبشيرا لهم بأنهم لا يسلكون بكتابهم مسلك اليهود بكتابهم . [1]

وفى الآية جاء الفعل (يُمَسَّكُونَ) بصيغة المضارع ، وعطف عليه قوله (وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ) بصيغة الماضى ، والمخالفة هذه تدل على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر فى جميع الأزمنة ، بخلاف إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها . [2]

ومعنى هذا أن التعبير بالمضارع قد دل على استمرار استمساكهم بكتاب الله وتجدده كلما عنَّ لهم أمر فى حياتهم ، طلبا لهدايته وتطبيقا لمنهجه ، أما الصلاة فإنها لما كانت على المؤمنين كتابا موقوتا عبر عن إقامتها بالفعل الماضى للدلالة على ثباتها ، حتى صارت إقامتها على وجهها فى وقتها صفة لهم ، وتخصيصها بالذكر من بين سائر العبادات ، إظهارا لعلو مرتبة الصلاة لكونها عماد الدين، وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان . [3]

ومنه قوله تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ

---

[1] ينظر : أبو السعود : 2 / 288 ، التحرير والتنوير : المجلد الخامس : جـ 9 / 164.

[2] أبو السعود : 2 / 288.

[3] الكشاف : 2 / 168 ، والتفسير الكبير : 7 / 336.

عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } (سورة الكافرون 1 : 6)

ففى السورة جاء قوله: (ولا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) معطوفا على قوله : (وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) ويلاحظ هنا الاختلاف بين صيغتى الفعل (أعبد – عبدتم) وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ولا أنا عابد ما كنا نعبد حتى يتفق مع قوله (أعبد) قبله ، لكن المولى جل وعلا قال : (مَّا عَبَدتُّمْ) بصيغة الماضى ، للدلالة على رسوخهم فى عبادة الأصنام من أزمان مضت ، وفيه رمز إلى تنزهه – ﷺ – من عبادة الأصنام من سالف الزمان . [1]

وفى السورة نفسها جاء قوله : (وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) معطوفا على قوله : (لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) والمخالفة بين نظم الجملتين واضحة فالأولى فعلية والثانية اسمية , والمعنى : لا أفعل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون ما أطلب منكم من عبادة إلهى . [2]

فنفى عبادته آلهتهم فى المستقبل يفيد نفى أن يعبدها فى الحال بدلالة فحوى الخطاب ، ولذا جاء فى جانب نفى عبادتهم لله بنفى اسم الفاعل الذى هو حقيقة فى الحال ، بقوله : (وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ) أى ما أنتم بمغيرين إشراككم الآن؛ لأنهم عرضوا عليه أن يبتدئوا هم فيعبدوا الرب الذى يعبده النبى – ﷺ – سنة ، وبهذا تعلم وجه المخالفة بين نظم الجملتين فى أسلوب الاستعمال البليغ [3] , وفى هذا تأييسهم مما راودوه عليه ، ولمقابلة كلامهم المردود بمثله فى إفادة الثبات .

وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم من الآيات التى يدل معناها على أنها لم

---

(1) التحرير والتنوير : المجلد الخامس عشر : جـ 30 / 583.

(2) أبو السعود : 5 / 206.

(3) التحرير والتنوير : المجلد الخامس عشر : جـ 30 / 582 بتصرف.

تقع بعد ، وإنما سوف تقع فى المستقبل ، ووقوعها محقق لا شك فيها لأن الله قد وعد بها المؤمنين ، أو أوعد بها الكافرين ، فكان التعبير الصادق الذى يدل على القطع بها ، هو التعبير بلفظ الماضى ليلائم معناه الذى حدث فعلا الأمر المقطوع بوقوعه ، وإن لم يقع بعد ، والمعنى الغالب فى أفعال الدعاء والرجاء أن يكون فى المستقبل ولكن يعبر عنه بلفظ الفعل الماضى ، يقول القائل : (صحبتك السلامة) و (حفظك الله) و (رعاك الله) ولا يحتاج لنقله إلى صيغة المضارع لأن المعنى بالبداهة معلق بالاستقبال ، وفى بقائه على صيغة المضارع ما يشعر بقوة الأمل فى الاستجابة كأن ما يرجى أن يكون قد كان ، وأصبح من المحقق المستجاب ، ولا شك ان هذا المعنى مقصود لأنه لم يأت عن عجز فى اللغة ، ولا يمتنع على قائل أن ينقله إلى صيغة المضارع إن شاء . [1]

[1] اللغة الشاعرة للعقاد ، ص 82 ، ط الاستقلال ، وفن البلاغة ، د / عبد القادر حسين ص 289.

المبحث الثالث

الأسرار البلاغية لمخالفة الأمر لكل من الماضى والمضارع والعكس

أولا : **مخالفة الأمر للماضى** :

ومن العدول عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر بغرض التوكيد لما أجرى عليه فعل الأمر لكمال العناية بتحقيقه قوله تعالى : { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } (سورة الأعراف 29)

فتقدير الكلام : أمر ربي بالقسط, وبإقامة وجوهكم عند كل مسجدٍ ... فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر (وأقيموا) للعناية بتوكيده في نفوسهم ، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عبادهِ ، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلبِ ، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النيةِ ولهذا قال النبي – ﷺ – : " إنما الأعمال بالنيات ... " الحديث . [1]

وللدكتور أبو موسى فى معنى الآية الكريمة وما يوحى به العدول عن صيغة الماضى إلى صيغة الأمر كلام بليغ يقول فيه : (ولننظر فى قوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مسْجِدٍ وَادْعوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...) نجد أن مقتضى الظاهر أن يقول : أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم، ولكنه عدل إلى الأمر كما نرى ؛ لأن المعنى المعبر عنه الذى هو إقامة الصلاة معنى مهم ، وقد أفادت هذه المخالفة أن الحديث بلغ مقطعا من المعنى يجب على السامع أن يلتفت إليه ، وهذه قاعدة عامة فى كل مخالفة ، ثم فى توجيه الأمر

---

[1] ينظر : المثل السائر : 2 / 11 ، التفسير الكبير للرازى : 7 / 44 بتصرف ، والحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى : 1 / 51 ، رقم (1) ، نشر دار الغد العربى.

إليهم بإقامة الصلاة ، دلالة على مزيد العناية بها ، وكأن الرسول – ﷺ – ينتقل (ينفتل) إليهم عند ذكر الصلاة آمرا ومؤكدا إقامتها ، ثم انظر إلى التعبير عن الصلاة بقوله : (وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...) تجد التعبير بإقامة الوجوه فيه معنى العزة ورفع الرأس إلى السماء عند مساجد الله حيث تنحنى الأصلاب لخالقها وتسجد فى ساحته مؤكدة بذلك أنها لا تنحنى لمخلوق ما دامت عرفت الانحناء للخالق ، ولا تطأطئ فى ساحة طاغية ما دامت سجدت لله تعالى . [1]

ومن دلالات هذا التحول، الدلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله من ذلك قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } (سورة البقرة 65 – 66)

نجد السياق كله يدل على أن الأحداث الواردة فيه قد حصلت فى الزمن الماضى بقرائن لفظية (ولقد علمتم – اعتدوا – فجعلناهم – فقلنا – فجعلنا) فالزمن المسيطر على السياق هو الزمن الماضى ، ولكن السياق تحول عن الفعل الماضى إلى الأمر بقوله : (كُونُواْ قِرَدَةً) ، لأن فى الأمر (كونوا) شداً للانتباه بالتحول الحاصل فى السياق ، مما جعل الأمر مركزا على بؤرة الحدث المهمة وهى تحول ذواتهم إلى قردة خاسئين .

وفيه دلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله مستمدا ذلك من قدرة الآمر – ﷻ – : { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [2] (سورة النحل 40) ، ففى الأمر دلالة على قوة إيقاع الحدث وتحققه لا تكون فى الماضى

---

[1] ينظر : خصائص التراكيب ، د / أبو موسى ، ص 205.

[2] ينظر : التفسير الكبير للرازى : 2 / 154 ، تفسير أبى السعود : المجلد الأول ، ص 110.

فى ما لو كان السياق على نحو: (فجعلناهم قردة خاسئين) لأن الأمر يدل على شدة غضب الجبار عليهم ، وصدور الأمر منه على وجه السرعة والقوة والجبروت وهذا السياق سياق تحول وتغير ، فكما حصل تحول فى أشكالهم ، وذواتهم وافق ذلك تحول فى التعبير عن ذلك الحدث ، فوافق تحول المبنى تحول فى المعنى .

قال أبو حيان (ت 745هـ): (فَقُلْنَا لَهُمْ " كُونُواْ " أمر من الكون ، وليس بأمر حقيقة ، لأن صيرورتهم إلى ما ذكر ليس فيه تكسب لهم ، لأنهم ليسوا قادرين على قلب أعيانهم قردة ، بل المراد منه سرعة الكون على هذا الوصف، كقوله تعالى : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [1] ومجازه : أنه لما أراد منهم ذلك صاروا كذلك . [2]

وقد يرد التحول إلى الأمر للدلالة على كيفية وقوع الحدث كما فى قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ } (سورة البقرة 243)

يخبر السياق عن حدث مضى ، وكان يقتضى أن يكون : (فأماتهم الله ثم أحياهم) ولكنه تحول عن الماضى إلى الأمر (مُوتُواْ) للدلالة على أن الحدث قد وقع بسرعة وقوة شملت جميع المخاطبين ، فلم يتخلف عنه أحد ، وأن الموت قد تلبسهم جميعا فى لحظة واحدة ، ولو قال : (فأماتهم) لما كان فى الماضى دلالة على ذلك ولكان المعنى أنهم قد ماتوا فحسب ، يقول الزمخشرى : (فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ

---

[1] سورة يس (82).

[2] البحر المحيط لأبى حيان : 1 / 409 ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت 1422هـ 2001م والتحرير والتنوير : المجلد الأول ، ص 544 – 545 بتصرف.

مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) فإن قلت : ما معنى قولـه : (فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُـواْ) قلـت : معناه فأماتهم , وإنما جئ به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجـل واحد بأمر الله ومشيئته , وتلك ميتة خارجة عن العـادة كـأنهم أمـروا بشـيء فامتثلوه امتثالا من غير إباء , ولا توقف .

كقوله تعالى : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } . [1]

ثم مثل الفعل الماضى (فأحياهم) تحولا عن الأمر إلى الماضـى لدلالـة توحى بأن القدرة الإلهية هى التى أحيت كما أماتت ، إذ ليس بمقدور الأمـوات أن يكونوا أهلا للخطاب ، وتوجيه الأمر إليهم فيما لو قال: ثم (أحيوا) وفيه إشارة إلى مطل الزمن مع التراخى الذى يشير به الحرف (ثم) مع فعل الإحيـاء حتـى يشاهد بعضهم بعضا لحظة الإحياء فيكون ذلك أشد وقعا على النفس وأثرا .

ويرد التحول عن الماضى الذى يمثل جملة خبرية إلى فعل الأمـر الـذى يمثل جملة إنشائية بقصد التفرقة بين مضمونها، منه قولـه تعالى : { ... وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُـوا قَوْلَ الزُّورِ } (سورة الحج 30)

معنى الآية : أن الله قد أحلّ لكم الأنعام كلها إلاّ ما اسـتثناه فـي كتابـه فحافظوا عل حدوده ، وإياكم أن تحرموا مما أحلّ شيئاً ، كتحريم عبـدة الأوثـان البحيرة والسائبة وغير ذلك ، وأن تحلوا مما حرم الله ، كإحلالهم أكل الموقـوذة والميتة ، وغير ذلك [2] ، وقال الرازى : ثم إنه سبحانه لما حـثّ علـى تعظـيم حرماته وأحمد من يعظمها , أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور ؛ لأن توحيد

---

[1] سورة يس (82)، وينظر: الكشاف للزمخشرى: 1 / 286 ، التفسير الكبير: 3 / 476.

[2] الكشاف : 3 / 151.

الله , ونفي الشريك عنه , وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطواً . [1]

وقد جاء التحول عن الماضى (أُحِلَّتْ) الذى هو جملة خبرية ، إلى الأمر (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ ...) الذى يمثل جملة إنشائية طلبية للدلالة على التفريق بين الخبر والإنشاء ، فالخبر بصيغة الماضى (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ) يشير إلى تحقق حصول الحل وتلبسهم به منذ زمن ، وفى ذلك مزيد فضل عليهم وامتنان ، ثم استثنى مما أحله من الأنعام ما يتلى عليهم ، فأتى بصيغة المضارع (يُتْلَى) وحقه أن يأتى بالماضى لمطابقة السياق فيكون (إلا ما تلى عليكم) فأفاد المضارع هنا الاحتراز أى ما يتلى عليكم من المحرمات فى هذه الآيات وما سيعقبها من محرمات لاحقة لا ما قد ذكر فى آيات سابقة فحسب . [2]

ثم تحول عن الإخبار إلى الإنشاء والطلب فقال : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) وفى التحول عن الإخبار إلى الإنشاء ، إشارة إلى اختلاف مضمونها مبنى ومعنى ، فالحلال يختلف تماما عن الحرام ، وبينهما بون شاسع لذلك حسن مجئ الأمر بالاجتناب ليكون هذا التحول فى الأسلوب لافتا للنظر إلى الاختلاف بينهما وأن الرجس من الأوثان وقول الزور لا يدخلان فى الحلال , ولو جاء السياق على نسق واحد من الإخبار، فقال: (وأحلت لكم الأنعام، وحرم عليكم الرجس من الأوثان وقول الزور) لما كان فيه من الدلالة المذكورة فى المفارقة ما فى هذا التعبير .

ثانيا : **مخالفة الأمر للمضارع** :

يقول ابن الأثير : (وهذا القسم كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلباً للتوسع في أساليب الكلام فقطِ بل لأمر وراء ذلكِ , وإنما

---

[1] التفسير الكبير للرازى : 11 / 271.

[2] ينظر : التحرير والتنوير : المجلد الثامن : جـ 17 / 253.

يقصد إليه تعظيماً لحال من أجري عليه الفعل المستقبلِ وتفخيماً لأمرهِ , وبالضد من ذلك فيمن أجري عليه فعل الأمر .[1]

فمما جاء منه قوله تعالى – حكاية عن هود عليه السلام – : { قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } (سورة هود 53 – 54)

الآية الكريمة تحكى مقولة سيدنا هود – عليه السلام – لقومه ردا على تكذيبهم له وسخريتهم منه ، وادعائهم الباطل بأن به مسا من آلهتهم : (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ ...) ، وقد تضمنت هذه المقولة عدولا عن صيغة المضارع : (أُشْهِدُ اللّهِ) إلى صيغة الأمر: (وَاشْهَدُواْ)، وذلك لإبراز البون الشاسع بين الإشهادين ، والدلالة على أن الثانى منهما ليس إشهادا حقيقيا، وأنه – عليه السلام – إنما أمرهم به على سبيل السخرية بهم ، والتحدى لإرادتهم ، وهذا ما قرره الزمخشرى إذ يقول فى توجيه هذا العدول : (هلا قيل : إني أشهد الله , وأشهدكم ؟ قلت : لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده ، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم , ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأوّل ؛ لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه . أشهد علي أني لا أحبك تهكما به , واستهانة بحاله ...) .[2]

وقد صرح صاحب الانتصاف بأن فى العدول إفادة أخرى ، وهى : احتمال أن يكون إشهاده لهم حقيقة ، والغرض إقامة الحجة عليهم ، وإنما عدل إلى

---

[1] المثل السائر لابن الأثير : 2 / 11 ، ت / محمد محيى الدين عبد الحميد.

[2] الكشاف للزمخشرى : 2 / 388 ، وتفسير البيضاوى : 3 / 112.

صيغة الأمر عن صيغة الخبر ، للتمييز بين خطابه لله – تعالى – وخطابه لهم ، بأن يعبر عن خطاب الله – تعالى – بصيغة الخبر التى هى أجل وأوفر للمخاطب من صيغة الأمر . [1]

فالمخالفة فى التعبير تفيد – كما ذكر – الفرق بين نوعين من الشهادة : شهادة الله على براءته، وتلك شهادة صحيحة، وشهادتهم ، وتلك شهادة لا فائدة منها إلا التهاون بهم ، فلما وجد هذا الفرق المعنوى بين الشهادتين وجب أن يوجد فى الصياغة ضرب من المخالفة،وواضح أن قدرا من الاستهانة بهم أشارت إليه صيغة الأمر من حيث أنزلتهم منزلة المأمور، وجعلت سيدنا هودا –عليه السلام– منزلة الآمر.[2]

وقد يتحول عن المضارع إلى الأمر للدلالة على أن الفعل المضارع يراد به الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} (سورة البقرة 155)

أتى بالفعل المضارع المؤكد (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) ثم تحول إلى فعل الأمر(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) ولم يقل : (ولنبشرن الصابرين) حتى يكون السياق مطردا على نسق المضارع المؤكد على نحو (ولنبلونكم – ولنبشرن) .

ويرى الألوسى (ت 1270هـ) أن قوله : (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) معطوف على (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) من قبيل عطف المضمون على المضمون " أى الابتلاء حاصل لكم ، وكذا البشارة ، لكن لمن صبر منكم [3] .

---

[1] ينظر : حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن المنير على الكشاف : 2 / 388 ، إعراب القرآن وبيانه : 4 / 382 وما بعدها.

[2] ينظر : خصائص التراكيب ، ص 206.

[3] روح المعانى للألوسى : 2 / 23 ، ط دار إحياء التراث العربى ، بيروت.

ويقول الطاهر بن عاشور : (جملة : (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) معطوفة على قوله: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) ، والخطاب للرسول – عليه الصلاة والسلام – بمناسبة أنه ممن شمله قوله : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) وهو عطف إنشاء على خبر , ولا ضير فيه عند من تحقق أساليب العرب , ورأى في كلامهم كثرة عطف الخبر على الإنشاء وعكسه .

وأفاد مضمون الجملة الذي هو حصول الصلوات والرحمة والهدى للصابرين بطريقة التبشير على لسان الرسول – ﷺ – تكريماً لشأنه ، وزيادة في تعلق المؤمنين به , بحيث تحصل خيراتهم بواسطته ، فلذلك كان من لطائف القرآن إسنادُ البلوى إلى الله بدون واسطة الرسول – ﷺ – ، وإسنادُ البِشارة بالخير الآتي من قِبَل الله إلى الرسول – ﷺ – . [1]

وهذا العطف بين الخبر والإنشاء هو ما عرف عند الزمخشرى بعطف القصة على القصة ، فالزمخشرى لا يمنع عطف الإنشاء على الخبر ما دام المعتمد بالعطف هو مضمون الجمل لا الألفاظ، وحينئذ لا تطلب المشاكلة بين الألفاظ، وإنما تطلب المناسبة بين المعانى . [2]

فهو عطف معنى الكلام ومفهومه ومضمونه الكلى المنبثق من جزئيات متعددة مختلفة الصور خبرا وإنشاء على مضمون كلى مثله .

والذى يظهر أن قوله : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) فيه معنى انشائى ، وهو طلب الصبر منهم على البلاء ؛ لأن الإخبار بذلك مآله طلب الصبر على ذلك البلاء ، فيكون (بشر) معطوفا على (لنبلونكم) لما فيه معنى الطلب، ولكنه تحول عن أن يقال : (فاصبروا وأبشروا) إلى ما عليه النظم ، ليكون الخبر المؤكد فى

---

[1] التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : 2 / 56 وما بعدها.

[2] الكشاف : 1 / 206.

(لنبلونكم) مفجرا الرغبة والعزم على الصبر ، ومقابلة البلاء به .

ومنه قوله تعالى : { قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا } (سورة مريم 46)

ففى هذه الآية تحول عن الفعل المضارع (أَرْجُمَنّكَ) إلى الأمر (وَاهْجُرْنِي) ولم يقل : ولأهجرنك .

يقول صاحب التحرير والتنوير : (وجملة (وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) عطف على جملة (لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) ؛ وذلك أنه هدّده بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم ، وبعقوبة عاجلة وهي طردهُ من معاشرته وقطع مكالمته ، والهجر: قطع المكالمة وقطع المعاشرة، وإنما أمر أبو إبراهيم ابنَه بهجرانه , ولم يخبره بأنه هو يهجره , ليدلّ على أن هذا الهجران في معنى الطرد والخَلْع إشعاراً بتحقيره[1]

وقال الزمخشرى : (إن فعل الأمر (اَهْجُرْنِى) معطوف على محذوف يدل عليه (لارْجُمَنَّكَ) أي : فاحذرني واهجرني ، لأن (لارْجُمَنَّكَ) تهديد وتقريع [2] , فالفعل (لأرْجُمَنَّكَ) فيه تهديد ووعيد بإبراهيم – عليه السلام – مضمونه إنشاء يراد به تحذيره من سب آلهتهم المزعومة، وكأنه يقول: إذا لم تنته فاحذرنى .

ثالثا : مخالفة المضارع للأمر :

قد يأتى فعل الأمر ابتداء ، ثم يتحول عنه إلى الفعل المضارع ، فيكون فى المضارع مزيد حث على تنفيذ هذا الأمر ، وذلك من خلال استحضاره مشهد الحدث ، نحو قوله تعالى : { قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ

---

(1) التحرير والتنوير : المجلد الثامن : جـ 16 / 120.

(2) الكشاف : 3 / 20 ، تفسير أبى السعود : المجلد الثالث : جـ 5 / 268 ، روح المعانى : 16 / 19 بتصرف.

الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (سورة الأنعام 71 – 72)

فبنية السياق فى النظم تقتضى أن تكون الأفعال على نحو : (وأمرنا لنسلم لرب العالمين – وأن نقيم الصلاة – ونتقيه – ﷻ – لأنه هو الذى إليه نحشر) وبذلك تطرد الأفعال على نسق واحد، وهو زمن المضارع، إلا أن السياق فى بنيته أبرز فعل الأمر (أَقِيمُواْ– وَاتَّقُوهُ) ليجسم معنى الفرض ، والوجوب عند ذكر الصلاة والتقوى ، ثم تحول إلى المضارع (تُحْشَرُونَ) ليفيد الاستحضار الدائم لمشهد الحشر المستقبلى بأهواله الجسام وجعله متجددا دائما أمام عين المتلقى ، لكى يقبل بهمة على تنفيذ الأوامر السابقة ، وهى الإسلام وإقامة الصلاة ، والتقوى .

هذا عن مخالفة المضارع (تُحْشَرُونَ) للأمر (وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ)

أما عن مخالفة الأمر (أَقِيمُواْ – وَاتَّقُوهُ) للمضارع فى قوله : (وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ) فيقول الرازى : (فإن قيل : كيف حسن عطف قوله : (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ) على قوله : (وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ...) ؟ قلنا : ذكر الزجاج فيه أن التقدير: وأمرنا فقيل لنا أسلموا لرب العالمين ، وأقيموا الصلاة .

فإن قيل : هب أن المراد ما ذكرتم ، لكن ما الحكمة في العدول عن هذا اللفظ الظاهر والتركيب الموافق للعقل إلى ذلك اللفظ الذي لا يهتدي العقل إلى معناه إلا بالتأويل ؟ قلنا : وذلك لأن الكافر ما دام يبقى على كفره ، كان كالغائب الأجنبي فلا جرم يخاطب بخطاب الغائبين ، فيقال له : (وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وإذا أسلم وآمن ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضر ، فلا جرم يخاطب بخطاب الحاضرين ، ويقال له : (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتّقُوه)

فالمقصود من ذكر هذين النوعين من الخطاب التنبيه على الفرق بين

حالتي الكفر والإيمان ، وتقريره أن الكافر بعيد غائب والمؤمن قريب حاضر . [1]

وقد يتحول عن أمر المضارع للدلالة على أن الأمر فى معنى الخبر لا الطلب ، من ذلك قوله تعالى : { قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا } (سورة مريم 75 – 76)

حيث جاء النظم القرآنى بفعل الأمر (فَلْيَمْدُدْ) ثم تحول عنه إلى المضارع (وَيَزِيدُ) ولو جاء السياق على نمط واحد لكان (فليمدد وليزد) ولكن السياق خالف بينهما ، للدلالة على أن فعل الطلب (فَلْيَمْدُدْ) يراد به الخبر لا الإنشاء يقول الزمخشرى : (" وَيَزِيدُ " معطوف على موضع " فَلْيَمْدُدْ " ؛ لأنه واقع موقع الخبر ، تقديره : من كان في الضلالة مدّ ، أو يمدّ له الرحمن ، ويزيد: أي يزيد في ضلال الضال بخذلانه ، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه) . [2]

وعندئذ يصبح السياق مطردا تقديره : من كان فى الضلالة يمد له الرحمن مدا ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ، فيكون الطلب قد وضع موضع الخبر، أى جيئ بالطلب والمراد به الخبر ، وإنما تحول به عن أسلوب الخبر إلى الإنشاء الطلبى مبالغة فى تأكيد ذلك وحصوله ، وكأنه أمر واجب تحققه ووقوعه.

والعدول عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر (مخالفة الأمر للمضارع) وعن الفعل الماضى إلى فعل الأمر – مخالفة الأمر للماضى – يعد من قبيل عطف

---

[1] التفسير الكبير : 6 / 370 ، روح المعانى للألوسى : 7 / 190 ، المحرر الوجيز لابن عطية : 2 / 363 بتصرف.

[2] الكشاف للزمخشرى : 3 / 36 ، تفسير أبى السعود : المجلد الثالث : جـ 5 / 277 وما بعدها ، والتحرير والتنوير : المجلد الثامن : جـ 16 / 156 – 157 بتصرف.

الإنشاء على الخبر ، أو وقوع الإنشاء موقع الخبر ففى قوله تعالى : { قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ ... } عطف (وَاشْهَدُواْ) وهى جملة إنشائية لفظا خبرية معنى على قوله (أُشْهِدُ اللّهِ) وهى جملة خبرية لفظا ومعنى ، والغرض : الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق ، فلم يقل (وأشهدكم) تحاشيا وفرارا من مساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى ، وكذلك فى قوله تعالى : { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ... } حيث عطف قوله : (وَأَقِيمُواْ) و (وَادْعُوهُ) وهما من قبيل الإنشاء لفظا ، خبريتان معنى ، على قوله تعالى : (أمر ...) وهى جملة خبرية لفظا ومعنى ، والغرض : إظهار العناية بالشئ والاهتمام بشأنه ، إذ لم يقل : (وإقامة وجوهكم) إشعارا بالعناية بأمر الصلاة ، لعظم خطرها وجليل قدرها فى الدين ، وعليه فإنه يمكن جعلهما من مواطن الوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، لاتفاق الجملتين فى الخبرية من حيث المعنى ولفظ الأولى خبر ، والثانية إنشاء . [1]

وإن كان هذا لا يتعارض مع ما كشف عنه العلماء من لطائف وأسرار فى العدول عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر فى الآية الأولى وأمثالها ، وفى العدول عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر فى الآية الثانية وأمثالها ، فإن النكات البلاغية لا تتدافع ، أو تتوارد ولا تتعارض .

---

[1] ينظر : روائع المعانى ، د / عبد الحميد محمد العبيسى ، ص 176 ، جواهر البلاغة للهاشمى ، ص 109 ، فن البلاغة ، د / عبد القادر حسين ، ص 27 وما بعدها.

المبحث الرابع

الأسرار البلاغية لمخالفة الاسم للفعل ، والعكس

لكل من صيغتى الاسم والفعل خصوصيتها التى تتميز بها من الأخرى فى أداء المعنى ، وقد حدد البلاغيون هذه الخصوصية فى كل منهما فقالوا : (إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشئ من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شئ ، فإذا قلت : زيد منطلق , فقد أثبت الانطلاق فعلا له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك : زيد طويل وعمرو قصير . فكما لا يقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث بل توجبهما وتثبتهما فقط , وتقضي بوجودهما على الإطلاق , كذلك لا تتعرض في قولك : زيد منطلق , لأكثر من إثباته لزيد .

وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك , فإذا قلت: زيد ها هو ذا ينطلق , فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا وجعلته يزاوله ويزجيه ... وإذا أردت أن تعتبره بحيث لا يخفى أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه فانظر إلى قوله تعالى : { وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ } [1]

فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل ههنا , وإن قولنا : كلبهم يبسط ذراعيه لا يؤدي الغرض ، وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا) [2] فاتضح أن الاسم يدل على الثبوت

---

[1] سورة الكهف من الآية (18).

[2] دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص 133 ، ط دار المعرفة 1978م ، ونهاية الإعجاز فى دراية الإعجاز للرازى ، ص 156 ، ت د / بكرى شيخ أمين ، ط دار العلم للملايين 1985م.

والفعل يدل على التجدد والحدوث .

وفى ضوء هذا الفارق يمكن أن نستوحى بعض ما يوحى به العدول عن إحدى هاتين الصيغتين إلى الأخرى فى النظم القرآنى .

أولا : **مخالفة الاسم للفعل** :

ومن الشواهد القرآنية التى جاء الاسم فيها مخالفا للفعل لأسرار بلاغية منها : الاهتمام بشأن الفاعل قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ } (سورة البقرة 8)

تشير الآية إلى طائفة من المنافقين ، وقد وصف الله حالهم فى هذه السورة فى ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم وفضحهم واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم ... وأول هذه الصفات النطق بالإيمان باللسان ، وامتلاء القلب بالكفر والضلال ... . [1]

والمتبادر فى الآية أن يقال : (وما أمنوا) ليطابق قوله (آمَنَّا) ولكن النظم القرآنى عدل عن الفعل إلى الاسم (وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) لإخراجهم من عداد المؤمنين , وأكده بالباء مبالغة فى تكذيبهم .

يقول الطاهر بن عاشور : (وقوله : (وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) جئ في نفي قولهم بالجُملة الاسمية ، ولم يجئ على وزان قولهم : (آمَنَّا) بأن يقال : (وما آمنوا) ؛ لأنهم لما أثبتوا الإيمان لأنفسهم كان الإتيان بالماضي أشمل حالاً لاقتضائه تحقق الإيمان فيما مضى بالصرامة ودوامَه بالالتزام ؛ لأن الأصل أن لا يتغير الاعتقاد بلا موجب, كيف والدين هو هو ، ولما أريد نفي الإيمان عنهم كان نفيه في الماضي لا يستلزم عدم تحققه في الحال بلهَ الاستقبال فكان قوله : (وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) دالاً على انتفائه عنهم في الحال ، لأن اسم الفاعل حقيقة في زمن

---

[1] التفسير المنير : 1 / 80 ، 81.

الحال وذلك النفي يستلزم انتفاءه في الماضي بالأوْلى ؛ ولأن الجملة الفعلية تدل على الاهتمام بشأن الفعل دون الفاعل فلذلك حكى بها كلامهم ؛ لأنهم لما رأوا المسلمين يتطلبون معرفة حصول إيمانهم قالوا (آمنَّا) ، والجملةُ الاسمية تدل على الاهتمام بشأن الفاعل أي إن القائلين (آمنا) لم يقع منهم إيمان , فالاهتمام بهم في الفعل المنفي تسجيل لكذبهم, وهذا موطن من مواطن الفروق بين الجملتين الفعلية والاسمية) . [1]

ومن أسرار مخالفة الاسم للفعل، الدلالة على الاستمرار، مثل قوله تعالى: { الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (سورة آل عمران 134)

لما بين المولى جل شأنه أن الجنة معدة للمتقين ذكر صفاتهم حتى يتمكن الإنسان من اكتساب الجنة بواسطة تلك الصفات ، وفى التعبير عن صفة الإنفاق بصيغة المضارع (يُنفِقُون) ثم العدول عنها إلى صيغة اسم الفاعل فى التعبير عن كظم الغيظ والعفو عن الناس استثمار لما بين الصيغتين من فارق فى الدلالة على تأصل الأوصاف الثلاثة فى نفوس المتقين ، والإيحاء بتحقق الصورة المثلى لكل منها لديهم ، ذلك أن الصورة المثلى لصفة الإنفاق لا تتحقق إلا عند تجددها وتتابعها على اختلاف الظروف وتنوع الأحوال – دلالة الفعل المضارع – .

أما فى كظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، فإنها لا تتحقق إلا مع الثبات عليهما ، ومصابرة النفس على التمسك بهما – دلالة الاسم – ففى المخالفة بين الصيغتين فى تلك الآية – إذن – إشعار بأن هؤلاء لتمكن التقوى ورسوخها فى قلوبهم قد أوفوا فى كل ما وصفوا به على الغاية ، وبلغوا حد الكمال ، أو درجة

[1] ينظر : التحرير والتنوير : 1 / 264 ، 265.

الإحسان (وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) . [1]

يقول العلامة أبو السعود موضحا ذلك : (وقوله : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَـيْظَ) عطف على قوله : (الَّذِينَ يُنفِقُونَ) والعدول إلى صيغة الفاعـل للدلالـة علـى الاستمرار ، أما الإنفاق فحيث كان أمرا متجددا عبر عنـه بمـا يفيـد الحـدوث والتجـدد) [2] وفى هذا إرشاد للمؤمنين إلى فعل الخيرات .

ومن الشواهد التى تدل على الثبات والدوام والاسـتمرار قولـه تعـالى : { وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَـوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ } (سورة الأعراف 193)

لما أثبت المولى جل شأنه أنه لا قدرة للأصنام على أمر من الأمور بـين بهذه الآية أنه لا علم لها بشئ من الأشياء .

والمعنى : أن هذا المعبود الذي يعبده المشركون معلوم من حاله أنه كمـا لا ينفع ولا يضر ، فكذا لا يصح فيه إذا دعى للخير الأتباع ولا يفضل حـال مـن يخاطبه ممن يسكت عنه ، ثم قوى هذا الكلام بقوله : {سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُـوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ } [3] , ففرق بين طرفى التسـوية فقـال : (أَدَعَوْتُمُـوهُمْ) بالفعل ثم قال : (أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ) بالاسـم فلـم يسـو بينهمـا ، فلـم يقـل : أدعوتموهم أم صمتم بالفعلية ، أو : أأنتم داعوهم أم أنتم صـامتون ، وذلـك أن الحال الثانية للإنسان هى الصمت، وإنما يتكلم لسـبب يعرض له ، ولـو رأيـت إنسـانا يكلم نفسه لاتهمته فى عقله ، فالكلام طارئ يحدثه الإنسان لسبب يعرض له ، ولذا لم يسو بينهما ، بل جاء للدلالة على الحال الثانية بالاسم (صَـامِتُونَ)

---

[1] أسلوب الألتفات فى البلاغة القرآنية ، ص 86.

[2] تفسير أبى السعود : 2 / 85 ، والتفسير الكبير : 4 / 456 بتصرف.

[3] التفسير الكبير للرازى : 7 / 401.

وللدلالة على الحال الطارئة بالفعل (أَدَعَوْتُموهُمْ) أى أأحدثتم لهم دعاء أم بقيتم على حالكم من الصمت . [1]

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت : هلا قيل : أم صمتم ؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية ؟ قلت : لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم ... فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم ، فقيل : إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم ، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم [2] فصيغة الفعل مشعرة بالتجدد والحدوث حالا بعد حال وصيغة الاسم مشعرة بالدوام والثبات والاستمرار .

ومنه قوله تعالى : { عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ } (سورة التوبة 43)

الآية نزلت فى غزوة تبوك على وجه الذم للمتخلفين والمدح للمبادرين ولقد أحسن من قال فى هذه الآية : إن من لطف الله – تعالى – على نبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء : لم أذنت لهم ؟ لتفطر قلبه – ﷺ – فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام . [3]

وعن القيمة البلاغية لمخالفة الاسم للفعل ، يقول أبو السعود : (وتغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذي صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثاني باسم الفاعل المفيد للدوام للإيذان بأن ما ظهر من

---

[1] ينظر: معانى الأبنية فى العربية ، د / فاضل صالح السامرائى ، ص 11 ، ط المكتبة الوطنية 1981م.

[2] يراجع الكشاف : 2 / 182 ، والتحرير والتنوير : المجلد الخامس ، جزء 9 / 219 بتصرف.

[3] ينظر : التفسير الكبير : 8 / 22 ، حاشية الانتصاف على الكشاف : 2 / 265.

الأولين صدق حادث في أمر خاص غير مصحح لنظمهم في سلك الصادقين ، وأن ما صدر من الآخرين وإن كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشئ عن رسوخهم في الكذب ...) .[1]

ومنه – أيضا – قوله : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمونَ نَاكسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ } (سورة السجدة 12)

الآية كلام مستأنف مسوق لاستحضار صورة المجرمين عامة يوم القيامة ولتجسيد الفظاعة التى حلت بهم ، وقال أهل العلم إن الخطاب فى الآية للرسول – ﷺ – وفى ذلك تسلية وترويح له – ﷺ – ، وقيل : له ولأمته ، ومعناه : ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب .[2]

والعدول عن الفعل إلى الاسم فى قوله : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ) لتقرير ثباتهم على نكس رءوسهم خجلا وحياء وحزنا عندما تبدو مثالبهم وهناتهم بصورة دميمة شوهاء تبعث على الهزء بهم والسخرية منهم ، وكذلك عدل عن الفعلية إلى الاسمية المؤكدة فى قوله : (إِنَّا مُوقِنُونَ) إظهارا لثباتهم على الإيقان ، وكمال رغبتهم فيه ...) .[3]

وفى التعبير بالنكس لطافة وملاحة ، إذ أتى بالفعل الذى يتضمن الذلة والخضوع ؛ لأن النكس قلب الشئ على رأسه ، ومنه نكس الولد إذ أخرج رجله قبل رأسه ، فكأنهم قلبوا على رءوسهم خجلا وانكسارا وخذلانا فهم

---

[1] تفسير أبى السعود : المجلد الثانى : 4 / 68 وما بعدها.

[2] ينظر : البحر المحيط لأبى حيان : 7 / 195.

[3] يراجع : تفسير أبى السعود : المجلد الرابع : 7 / 82 ، 83 ، الجدول فى إعراب القرآن ، تأليف / محمود عبد الرحيم صافى : 21 / 111 ، نشر دار الرشيد ، دمشق ، ط الرابعة 1418هـ ، إعراب القرآن وبيانه : 7 / 578 ، 581.

مطأطئوها ذلا وندما . [1]

ودخول (لو) على المضارع فى قوله : (ولو ترى ...) تنزيل للمضارع منزلة الماضى لصدوره عمن لا خلاف فى إخباره ، أو استحضار صورة رؤية المجرمين ناكسى رءوسهم قائلين لما يقولون ، هذه ما وضحه الزمخشرى، ومن نحا نحوه من السكاكى والخطيب وشراح التلخيص . [2]

ومن الشواهد التى جاءت المخالفة فيها للدلالة على دوام الانتفاء قوله تعالى : { لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } (سورة المائدة 28)

حيث فرق بين الشرط والجزاء فقال : (بَسَطتَ) بالفعل ، وقال : (مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ) بالاسم ولم يسو بينهما ، فلم يقل : (لئن بسطت لا أبسط) ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع [3] أى: أنا لست من أصحاب هذا الوصف وأن هذا الخلق ليس من شيمى ووصفى ، ويوضح العلامة أبو السعود سر المخالفة بين الاسم والفعل بقوله : (... صدر الشرطية باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح إيذانا من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه ولم يجعل جواب القسم الساد مسد جواب الشرط جمله فعلية موافقة لما في الشرط بل اسميه مصدرة بما الحجازية المفيدة لتأكيد النفي بما فى خبرها من الباء للمبالغة فى إظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفى البسط كما فى قوله تعالى : (وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) وقوله : (وَمَا هُم

---

[1] حاشية الشيخ زاده : 4 / 47.

[2] يراجع : الكشاف : 3 / 495 ، المفتاح ، ص 107 ، الإيضاح ، ص 96 ، وشروح التلخيص : 2 / 86.

[3] التفسير الكبير : 5 / 654.

بِخَارِجِينَ مِنْهَا) فإن الجملة الاسمية الإيجابية كما تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت كذلك السلبية تدل بمعونته على دوام الانتفاء ...) [1] وفى هذا من إرشاد قابيل إلى خشيته تعالى على أبلغ وجه وآكده ما لا يخفى .

ولنتأمل قوله تعالى : { وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } (سورة الأنفال 33)

ومعنى الآية : أن العذاب لم ينلهم ؛ لأن الرسول – كان فيهم ، ولن ينالهم ما دام بين ظهرانيهم ، وفى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ...) جاء التعبير بالفعل المضارع (يعذب) مقترنا باللام التى تفيد تأكيد النفى ، وتدل على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم فى الحكمة ؛ لأن عادة الله وحكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم .

وفى قوله: (وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) جاء التعبير باسم الفاعل (مُعَذِّبَهُمْ) مما يدل على اختلاف الصيغتين ، وفى توجيه ذلك قيل : (لما كان الذى أخبر الخبير به نفى تعذيبهم فى الماضى والحال ، دون الاستقبال ؛ لأنه قد أخبر بهم فى الاستقبال بقوله : (وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ) اقتضت البلاغة مجئ الفعل المضارع الدال على – مع الإطلاق – على الزمانين مع القرينة على أحدهما بحسب ما يدل عليه ، واقترن قوله : (وَأَنتَ فِيهِمْ) فأفاد دلالته على الحال دون الاستقبال ، ونفى حصول العلم بنفى تعذيبهم فيما مضى من الزمان قبل نزول الآية فأتى سبحانه بصيغة اسم الفاعل المضاف ليدل على المعنى ، فاقتضى حسن الترتيب أن يقدم صيغة الفعل لدلالتها على الحال الذى هو مدة مقامة فيهم؛ لأن نفى العذاب فيما هو الأهم . [2]

---

[1] تفسير أبى السعود : 2 / 27 بتصرف.

[2] إعراب القرآن وبيانه : 3 / 570.

وفى الآية ما يعرف بـ (فن التنكيت) وهو أن يقصد المتكلم إلى شئ بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتة فى المذكور ترجح مجيئه على سواه [1].

وهنا رجح اختلاف الصيغتين من الفعل (يُعذب) واسم الفاعل وهو (معذبهم) على اتفاقهما ، وفى توجيه الخطاب إلى النبى (ﷺ) واجتلاب ضمير خطابه بقوله (وأنت فيهم) لطيفة من التكرمة إذ لم يقل : وما كان الله ليعذبهم وفيهم رسوله ، كما فى قوله تعالى : (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ) وفى ذلك – أيضا – إعلام بكرامة رسول الله (ﷺ) عند الله ، لأنه جَعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العذاب سبباً في تأخير العذاب عنهم ، وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيه (ﷺ) [2] فالآية إخبار عما قدره الله فيما مضى .

ومن الشواهد القرآنية التى جاء الاسم فيها مخالفا للفعل لإفادة المبالغة، قوله تعالى: { قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ} (سورة الشعراء 136)

دعا هود – عليه السلام – قومه بالوعظ والترغيب والتخويف فبلغ فى دعائهم النهاية ، فكان جوابهم (سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ) أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما أورده ، وفى جوابهم جاء الاسم فى قوله (مِّنَ الْوَاعِظِينَ) مخالفا للفعل (أَوَعَظْتَ) فلم يقل: أوعظت أم لم تعظ، وذلك للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه، كأنهم قالوا: أم لم تكن من أهل الوعظ ومباشريه أصلا .

---

[1] المعجم المفصل فى علوم البلاغة ، ص 438 وما بعدها.

[2] ينظر : التحرير والتنوير : م 5 ، جـ 9 / 333.

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: لو قيل: (أَوَعَظْتَ) أم لم تعظ كان أخصر، والمعنى واحد، قلت: ليس المعنى بواحد، وبينهما فرق، لأنّ المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ ، أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه ، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك : أم لم تعظ) . [1]

ومن الشواهد – أيضا – التى تدل المخالفة فيها على المبالغة قوله تعالى: { قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ } (سورة الشعراء 167 ، 168)

فقولهم : (لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ ...) كقول قوم نوح لنوح ، إلا أن هؤلاء قالوا : (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) فهددوه بالإخراج من مدينتهم ؛ لأنه كان من غير أهل المدينة ، بل كان مهاجرا بينهم وله صهر فيهم ، وصيغة (مِنَ الْمُخْرَجِينَ) أبلغ من (لنخرجنك) ، وكان جواب لوط على وعيدهم جواب مستخف بوعيدهم ، إذ أعاد الإنكار : (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ) أى : من المبغضين، وقوله : (مِّنَ الْقَالِينَ) أبلغ فى الوصف من أن يقول: (إني لعملكم قال) لدلالته على أنه – عليه السلام – من زمرة الراسخين في بعضه المشهورين في قلاه, ولعله –عليه السلام– أراد إظهار الكراهة في مساكنتهم والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم , ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى الله تعالى قائلا : (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ) . [2]

وأحيانا تأتى المخالفة لإفادة تبكيت المنافقين وتحقيق حالتهم العجيبة كما فى قوله تعالى:{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ

---

[1] يراجع : الكشاف : 3 / 317 ، التفسير الكبير : 12 / 155 ، أبو السعود : 3 / 257.

[2] يراجع : التفسير الكبير : 12 / 159 ، تفسير أبى السعود : 3 / 261 ، وحاشية الانتصاف على الكشاف : 3 / 320 بتصرف .

قَامُــواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً } (سورة النساء 142)

الآيــة مســوقة لبيان طرف آخر من قبائح أعمالهم , أى : يفعلــون مــا يفعل المخادع من إظهار الإيمان , وإبطان نقيضه , والله فاعل بهــم مــا يفعــل الغالب في الخداع , حيث تركهم في الدنيا معصومى الدماء والأمــوال وأعد لهــم في الآخرة الدرك الأسفل من النار [1] , وفى الآيــة – أيضــا – زيــادة بيــان لمساوئهم ، كما أن مجئ الجملة مؤكدة بإن يفيد تحقيق حالتهم العجيبة ، وتحقيق ما عقبها من قوله تعالى : (وَهُوَ خَادِعُهُمْ) .

وقد جاء التحول عن صيغة المضارع (يُخَادِعُونَ) إلى صيغة اسم الفاعل (وَهُوَ خَادِعُهُمْ) مؤديا دوره فى تبكيت هؤلاء المنافقين الذين تسول لهم نفوسهم أن ظاهرهم الإيمانى قد أتى ثماره فى خداع المؤمنين وأن كفرهم فى مــأمن مــن الافتضاح ، غافلين عن أن الخالق – ﷻ – عليم ببواطنهم ، وأنه سبحانه إذا كان قد أمر المؤمنين بعصمة دمائهم فإنه بذلك يملى لهــم، ويمــدهم فــى طغيــانهم يعمهون[2]

ومما جاءت المخالفــة فيه تفيد الإشعار بسرعة الإجابــة قوله تعــالى : { وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّــذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } (سورة يونس 11)

الآية مسوقة لتصوير حالة الناس وتجسيد ما انطوى عليه كيــانهم مــن مطاوعة لنوازع النفس التى تغضب وتتبرم بسواها فتبدر منها فى حالات الأزمات النفسية أدعية يتمنون فيها الموت لأولادهم وذويهم ، ولكــن الله يتجــاوز عــن

(1) تفسير أبى السعود : المجلد الأول : 2 / 246.

(2) أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية ، ص 76 وما بعدها.

الاستجابة ؛ لأنه لو استجاب لكل ما يصدر عنهم لفرغ من هلاكهم [1] , وقد كان مقتضى السياق أن يأتى بالمصدر المناسب لفعله وهو التعجيل ، ولكنه عدل إلى الاستعجال وهو مصدر لاستعجل ، لنكتة تدق على الأفهام وتكاد تذهل عنها الخواطر ، إذ لا يكاد وضع المصدر مؤكدا ومقارنا لغير فعله فى الكتاب العزيز يخلو من نكتة ، قال صاحب الكشاف : (أصل الكلام : وَلو يعَجل اللَّهُ للناس الشر تعجيله لهم الخير ، فوضع (اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ) موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبهم ، حتى كأنّ استعجالهم بالخير تعجيل لهم)[2]

ومثل ذلك قوله تعالى : { وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا } [3] فى التنبيه على حتمية نفوذ القدرة فى المقدور وسرعة إمضاء الحكم حتى كأن إنبات الله تعالى لهم نفس نباتهم ، أى إذا وجد الإنبات وجد النبات ، حتى كأن أحدهما عين الآخر فقرن به ، وفى إيثار صيغة المبنى للمفعول (قضى) جرى على سنن الكبرياء مع الإيذان بتعيين الفاعل ... واختيار صيغة الاستقبال فى الشرط (ولو يُعجل) وإن كان المعنى على المضى ، لإفادة أن عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل، فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار الفعل، بل قد يفيد استمرار انتفائه – أيضا – بحسب المقام . [4]

ومن الأسرار البلاغية لمخالفة الاسم للفعل ، إفادة الثبات والتأكيد بتباين حال الفريقين ، مثال ذلك قوله تعالى : { ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

---

[1] إعراب القرآن وبيانه : 4 / 214.

[2] الكشاف : 2 / 230 وما بعدها ، التفسير الكبير : 8 / 295.

[3] سورة نوح الآية (17).

[4] تفسير أبى السعود : المجلد الثانى : 4 / 125.

بِالْمُهْتَدِينَ } (سورة النحل 125)

فى هذه الآية أمر الله رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن ومخاطبة الله رسوله -ﷺ- بهذا الأمر فى حين أنه داع إلى الإسلام ، وموافق لأصول ملة إبراهيم دليل على أن صيغة الأمر مستعملة فى طلب الدوام على الدعوة الإسلامية مع ما انضم إلى ذلك من الهداية إلى طرائق الدعوة إلى الدين .

وقوله : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ...) تعليل للأمر بالاستمرار على الدّعوة بعد الإعلام بأن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ، وبعد وصف أحوال تكذيبهم وعنادهم . [1]

وفى سياق الآية تحول عن صيغة الفعل إلى صيغة الاسم ، وعن هذا التحول وقيمته البلاغية يقول العلامة أبو السعود : (وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث , لما أنه تغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها وإعراض عن الدعوة , وذلك أمر عارض , بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة , ولذلك جئ به على صيغة الاسم المنبئ عن الثبات , وتكرير (هو أعلم) للتأكيد والإشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب) . [2]

ومما جاءت المخالفة فيه لتمييز كل فريق بما اتصف به قوله تعالى : { وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } (سورة العنكبوت 3)

ومعنى الآية : فليعلمن الله بالامتحان الذين صدقوا في الإيمان وليعلمن

---

(1) يراجع : التفسير الكبير: 9 / 662 ، التحرير والتنوير: م 7 ، جـ 14 / 325 ، 332.

(2) تفسير أبى السعود : المجلد الثالث : 5 / 151.

الكاذبين فيه ، ... ويجوز أن يكون وعدا ووعيدا ، كأنه قال : وليثيبن الذي صدقوا وليعاقبن الكاذبين [1] ، وفي قوله : (الَّذِينَ صَدَقُوا) بصيغة الفعل، وقوله: (الْكَاذِبِينَ) بصيغة اسم الفاعل , فائدة – مع أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة –، وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه , والفعل الماضي لا يدل عليه , كما يقال : فلان شرب الخمر , وفلان شارب الخمر , وفلان نفذ أمره , وفلان نافذ الأمر , فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك . [2]

ويقول الطاهر بن عاشور : (وتعريف المتصفين بصدق الإيمان بالموصول والصلة الماضوية , لإفادة أنهم اشتهروا بحدثان صدق الإيمان ، وأن صدقهم مُحقق ، وأما تعريف المتصفين بالكذب بطريق التعريف باللام , وبصيغة اسم الفاعل فلإفادة أنهم عُهدوا بهذا الوصف وتميزوا به مع ما في ذلك من التفنن والرعاية على الفاصلة) . [3]

ونظير ذلك قوله تعالى : { وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} (سورة العنكبوت 11)

خص بالذكر فريقان هما ممن شمله عموم قوله : (العالمين) [4] اهتماماً بهذين الفريقين وحاليهما : فريق الذين آمنوا ، وفريق المنافقين ؛ لأن العلم بما

---

(1) الكشاف للزمخشرى : 3 / 425 ، 426 بتصرف.

(2) التفسير الكبير للرازى : 12 / 341 وما بعدها.

(3) التحرير والتنوير : المجلد العاشر : الجزء العشرون ، ص 206.

(4) فى قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ } الآية (10).

في صدور الفريقين من إيمان ونفاق يترتب عليه الجزاء المناسب لحاليهما في العاجل والآجل ، فذلك ترغيب وترهيب . [1]

وعن المخالفة وقيمتها البلاغية يقول الطاهر بن عاشور: (والمخالفة بين المؤمنين والمنافقين في التعبير عن الأولين بطريق الموصول والصلة الماضوية وعن الآخرين بطريق اللام واسم الفاعل , لما يؤذن به الموصول من اشتهارهم بالإيمان وما يؤذن به الفعل الماضي من تمكن الإيمان منهم ، وما يؤذن به التعريف باللام من كونهم عُهِدوا بالنفاق وطريانه عليهم بعد أن كانوا مؤمنين ، ففيه تعريف بسوء عاقبتهم مع ما في ذلك من التفنن ورعاية الفاصلة) . [2]

ووجه تأكيد كلا الفعلين بلام القسم ونون التوكيد , أن المقصود من هذا الخبر رد اعتقاد المنافقين أن الله لا يطلع رسوله على ما في نفوسهم ، فالمقصود من الخبرين هو ثانيهما أعني قوله (وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) وأما قوله (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) فهو تمهيد لما بعده وتنصيص على عدم التباس الإيمان المكذوب بالإيمان الحق . [3]

ويلاحظ أن الآية السابقة قال الله تعالى: (فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا) وقال هنا الآية : (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) ولتوضيح ذلك يقول الرازى : (لما كان الذكر هناك للمؤمن والكافر ، والكافر في قوله كاذب ، فإنه يقول : الله أكثر من واحد، والمؤمن في قوله صادق, فإنه كان يقول: الله واحد ، ولم يكن هناك ذكر من يضم خلاف ما يظهر فكان الحاصل هناك قسمين صادقاً وكاذباً , وكان هنا المنافق صادقاً في قوله فإنه كان يقول الله واحد، فاعتبر أمر القلب في

---

(1) التحرير والتنوير : المجلد العاشر ، جزء عشرون ، ص 218.

(2) المصدر السابق الموضع نفسه.

(3) المصدر السابق الموضع نفسه.

المنافق فقال تعالى : (وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق ، فقال تعالى : (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا) . [1]

ومن أسرار المخالفة – أيضا – الدلالة على القدرة كما فى قوله تعالى : { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاق [2] * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ } (سورة ص 18 ، 19)

ففى سياق هاتين الآيتين تحول عن تأدية وظيفة الحال فى الآية الأولى بصيغة المضارع (يُسَبِّحْنَ) إلى تأديتها فى الآية الثانية بصيغة الاسم (مَحْشُورَةً) يقول الزمخشرى فى دلالة هذا التحول : أن السر فى اختيار (يُسَبِّحْنَ) فى الآية الأولى هو (الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح ... وقوله : (مَحْشُورَةً) في مقابلة : (يُسَبِّحْنَ) إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شئ ، جئ به اسما لا فعلا . وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئا شئ , والحاشر هو الله – ﷻ – لكان خلفا ، لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة) [3] ، وبهذا قال الرازى والطاهر بن عاشور وغيرهما . [4]

ونود أن نضيف – إلى ما ذكره الزمخشرى – أن الآيتين مسوقتان لإبراز

---

(1) التفسير الكبير : 12 / 356.

(2) الإشراق : وقت ظهور ضوء الشمس واضحا على الأرض ، وهو وقت الضحى ، يقال : أشرقت الأرض ، ولا يقال : أشرقت الشمس ، وإنما يقال شرقت الشمس وهو من باب قعد ، ... فوقت طلوع الشمس هو الشروق ، ووقت الإشراق الضحى.

(3) الكشاف : 4 / 75 وما بعدها.

(4) التفسير الكبير : 13 / 296 وما بعدها ، والتحرير والتنوير : المجلد الحادى عشر : جـ 23 / 228 ، تفسير البيضاوى : 5 / 16.

نعمتين خص الله بهما نبيه داود – عليه السلام –، وفى إيثار صيغة الفعل فى التعبير عن النعمة الأولى ، وصيغة الاسم فى التعبير عن الثانية ما يجلى عظمة هاتين النعمتين من جهة ، وخصوصيتهما بداود–عليه السلام– من جهة أخرى .

ذلك أن من شأن الجبال التسبيح الدائم، فهى إحدى المخلوقات أو "الأشياء" التى يصدق عليها قوله تبارك وتعالى: { ... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } .[1]

ومن ثم كان لإيثار صيغة الفعل المفيدة لمعنى التجدد (يُسَبِّحْنَ) دلالتها على أن التسبيح المقصود من الجبال ليس هو ذلك التسبيح الدائم ، بل هو تسبيح خاص بنبى الله داود – عليه السلام – يتجدد بتجدد تسبيحه وتلك الدلالة تدعمها دلالة الظرف (معه) وتقديمه الفعل (يُسَبِّحْنَ) فى الآية الأولى ، كذلك فإن من شأن الطير الحركة وسرعة التنقل من مكان إلى مكان ، ولهذا فإن لإيثار صيغة الاسم فى التعبير عن حشرها (مَحْشُورَةً) دلالة على أنها حين تحشر أو تتجمع لتجاوب تسبيح داود – عليه السلام – تكاد تفارق طباعها فتثبت فى مكان حشرها خاشعة لا تكاد تريم .[2]

ثانيا : **مخالفة الفعل للاسم** :

ومن الأسرار البلاغية لمخالفة الفعل للاسم : الدلالة على كمال قدرة الله تعالى كما فى قوله – عز وجل : { إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} (سورة الأنعام95)

---

(1) سورة الإسراء الآية (44).

(2) أسلوب الالتفات فى البلاغية القرآنية ، ص 87 ، والمعنى فى البلاغة العربية منذ عبد القاهر حتى السكاكى ، ص 232 ، د / حسن طبل ، رسالة دكتوراه مخطوط جامعة القاهرة 1983م.

كلام مستأنف مسوق لذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع ، وكمال علمه وحكمته وقدرته ، تنبيها على أن المقصود الأصلى من جميع المباحث العقلية والنقلية وكل المطالب الحكمية ، إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله . [1]

وفى النظم جاء قوله : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) بالفعل ، وكان الظاهر ورودها بصيغة اسم الفاعل، أسوة بأمثالها من الصفات المذكورة ، من قوله (فَالِقُ الإصباح) و (مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فى هذا الوصف وحده وهو قوله (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) إرادة لتصوير إخراج الحى من الميت – كالإنسان والطائر من النطفة والبيضة – واستحضاره فى ذهن السامع كأنه يشهده بعيان .

وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن فى أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضى ... ثم هذا المقصد إنما يجئ فيما تكون العناية به أقوى ، ولا شك أن إخراج الحى من الميت أشهر فى القدرة ، وأدل عليها من عكسه، والنظر أول ما يبدأ فيه كإخراج النطفة والبيضة من الحيوان... ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحى ناشئ عنه، فكان الأول جديرا بالتصوير والتأكيد فى النفس ، ولذلك هو مقدم أبدا على القسم الآخر فى الذكر على حسب ترتيبهما فى الواقع ... . [2]

كما أن التعبير بالفعل المضارع المخالف لاسم الفاعل فى النظم يكشف عن حقيقة قوله (فالق) وفى البيان بالمضارع – هنا – تناسب مع السياق الخاص بالآية وهو البعث ، كما لا يخفى ، ومع السياق العام والمقصود الأعظم لسورة

---

[1] التفسير الكبير للرازى : 6 / 444.

[2] الانتصاف بهامش الكشاف : 2 / 45 ، 46 بتصرف ، إعراب القرآن وبيانه : 3 / 174 وما بعدها.

الأنعام ، وهو الإيجاد الأول فجمع بين الإيجادين ، الأول تصريحا ، والثانى تلميحا ، وفى الوقت نفسه يتناسب البيان بالمضارع فى (يخرج الحى) مع طبيعة حركة وتجدد وتنوع الحدث... . [1]

ويقول الطاهر بن عاشور : (وقد جئ بجملة : (يخرج الحيّ من الميّت) فعلية للدلالة على أن هذا الفعل يتجدد ويتكرر في كل آن ، فهو مراد معلوم وليس على سبيل المصادفة والاتفاق ، وجئ في قوله : (ومُخرج الميّت من الحيّ) اسماً للدّلالة على الدّوام والثّبات ، فحصل بمجموع ذلك أنّ كلا الفعلين متجدّد وثابت ، أي كثير وذاتيّ ...) . [2]

وقد جاء – هنا – قوله : (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) على خلاف ما جاء عليه أمثاله ، ولم يأت كما أتى فى سورة آل عمران (وَتُخْرِجُ) [3] ولا كما جاء فى سورة يونس [4] وكما جاء فى سورة الروم . [5]

وعلى هذا يرد السؤال ، ما النكتة التى أوجبت مجئ هذا المكان على ما جاء عليه مخالفا لأمثاله ؟ والجواب الذى يتضح به هذا الإشكال أن يقال : إنما

---

(1) ينظر : الإمام البقاعى جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم، ص 309 وما بعدها.

(2) التحرير والتنوير : المجلد الرابع ، جـ 7 / 389 ، نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى : 2 / 678 ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت 1415هـ ، ت / عبد الرازق غالب المهدى.

(3) قوله تعالى : { تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ... } آية رقم (27).

(4) قوله تعالى : { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم ... أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ ... } آية رقم (31).

(5) قوله تعالى : { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ... } آية رقم (19).

جاء توخيا لحسن الجوار فى النظم ، لأنه قال : (فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) و (فَالِقُ الإصباح) والآية إنما سيقت للتمدح بالقدرة المطلقة التى هى صفة ذاتية لله تعالى فكان التمدح بها مع الإتيان بصيغة اسم الفاعل أبلغ من الإتيان بصيغة الفعل ، لما يدل عليه اسم الفاعل من المضى المطلق الدال على القدم ، فإن مجئ ذلك على ما جاء عليه يستفاد منه قدم القدرة ، ويلزم من قدمها قدم الموصوف بها .

ولما علم سبحانه أن تمدحه بمجرد فلق الحب والنوى فى بطن الأرض غير تام ؛ لأنه لا ينتفع به حتى يخرج نباته إلى ظاهر الأرض ، ويشاهد الناس قدرة مخرجه ومخترعه وجاء قوله : (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) مكملا ، وأتى فى هذه الجملة باسم الفاعل وهذا من المعاجز التى تنقطع دونها الأعناق . [1]

ويزداد الأمر وضوحا بقول فضيلة الشيخ الشعراوي فى تفسيره: (... ولأن الاسم يدل على الثبوت ، والفعل يدل على الحدوث ؛ فالحق – ﷻ – له صفة في ذاته ، وصفة في متعلقات هذه الذات ؛ فهو – ﷻ – رَزّاق ، قبل أن يكون له مخلوق يرزقه ، وهو رزاق ، وبعد ما خلق من يرزقه هو رازق ؛ لأنه هو الخالق والخالق صفة للذات وإن لم يوجد المتعلق ، وهو سبحانه المحيي قبل أن يوجد من يحييه ؛ لأن صفته في ذاته أنه يحيي، ومميت قبل أن يميت من يريد أن يميته ؛ لأن الصفة موجودة في ذاته، وسبحانه فالق الحب والنوى أي قبل أن يوجد الحب والنوى الذي يفلقه، ومخرج الحي من الميت هو صفة ثابتة في ذاته قبل أن يوجد متعلِّقها ، وله صفة – أيضاً – بعد أن يوجد المتعلق ، فإن أراد الصفة قبل أن يوجد المتعلَّق جاء بالاسم : (فالق ومخرج) وإن كان يريد الصفة بعد أن توجد ، يقول : (يخرج) و (يخرج) . [2]

---

[1] ينظر : إعراب القرآن وبيانه : 3 / 175 وما بعدها.

[2] نفسير الشيخ الشعراوى : 1 / 2647 بتصرف ، ط دار أخبار اليوم.

ومثل ذلك – أيضا – قوله عز من قائل : { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ } (سورة الأنبياء 81) وقوله فى سورة ص: { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ } (36).

لما ذكر الله تعالى ما خص به نبيه داود – عليه السلام –، ذكر ما خص به ابنه سليمان – عليه السلام – فقال : { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ... } وكان مقتضى الظاهر أن يقال : فسخرنا له الريح جارية بأمره... ولسليمان الريح عاصفة جارية بأمره ... ولكن عدل عن هذا الظاهر فعبر بالمضارع (تجرى) إحضارا لتلك الصورة العجيبة الدالة على القدرة الإلهية ، وكأنك حين تقرأ الآيات تشاهد الريح تجرى بأمر سليمان – عليه السلام – وتتمثل صورة جريانها بقدرة الله تعالى وتسخير الله إياها له – عليه السلام – .[1]

ويلاحظ أن الريح وصفت بالعصف وبالرخاء ، والعصف : الشدة فى السير والرخاء : اللين ، قيل : كان ذلك بالنسبة إلى الوقت الذى يريد فيه سليمان أحد الوصفين فلم يتحد الزمان ، وقيل : الجمع بين الوصفين كونها رخاء فى نفسها طيبة كالنسيم، عاصفة فى عملها ... ، وقيل : الرخاء : الليلة المناسبة لسير الفلك ، وذلك باختلاف الأحوال فإذا أراد الإسراع فى السير سارت عاصفة ، وإذا أراد اللين سارت رخاء والمقام قرينة على أن المراد ، المواتاة لإرادة سليمان ، كما دل عليه قوله : (تجرى بأمره) فى الآيتين ...[2]

---

[1] ينظر : علم المعانى دراسة بلاغية ونقدية ، د / بسيونى عبد الفتاح فيود : 1 / 253 وما بعدها.

[2] ينظر : تفسير البحر المحيط لأبى حيان : 6 / 309 ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت 1422هـ 2001م ، ت الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، التحرير والتنوير : المجلد الثامن، جـ 17 / 123، وتفسير النسفى لأبى البركات عبد الله بن أحمد النسفى : 3 / 76 ، ط دار النفائس ، بيروت 2005م ، ت الشيخ / مروان محمد الشعار.

إذن فتسخير الريح لمصالح سليمان – عليه السلام – أثر من آثار علم الله بمختلف أحوال الأمم والأقاليم ، وما هو منها لائق بمصلحة سليمان – عليه السلام – فيجرى الأمور على ما تقتضيه الحكمة التى أرادها سبحانه.

مخالفة الفعل للاسم :

وانظر إلى قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ } (سورة الملك 19)

كيف فرق بينهما فلم يقل : صافات وقابضات ، أو يصففن ويقبضن ، وذلك أن الأصل فى الطيران صف الأجنحة ، والقبض طارئ ، فكان الصف بصيغة الاسمية للدلالة على الثبوت ، والقبض بصيغة الفعلية للدلالة على التجدد والحدوث قال الزمخشرى : (فإن قلت : لم قيل (وَيَقْبِضْنَ) ولم يقل : (قابضات)؟ قلت : الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجئ بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح [1] والآية : دليل على انفراد الله – تعالى – بالتصرف في الموجودات ، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم، إلى دلالة أعجب أحوال العجماوات وهي أحوال الطيرِ في نظام حركاتها في حال طيرانها , إذ لا تمشي على الأرض كما هو في حركات غيرها على الأرض ، فحالها أقوى دلالة على عجيب صنع الله المنفردِ به . [2]

ومن أسرار مخالفة الفعل للاسم : المبالغة فى تأكيد الموت والبعث كما

---

[1] الكشاف : 4 / 568 وما بعدها ، والتفسير الكبير : 15 / 33.

[2] التحرير والتنوير : مج 14 / جـ 29 / 37.

فى قوله تعالى : { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } (سورة المؤمنون 15 ، 16)

هاتان الآيتان ترتبتا بعد تكوين خلقة الإنسان وما مر فيها من مراحل عجيبة الشأن عالية القدر ، حسبما ينبئ عنه ما في اسم الإشارة (ذلك) الدال على البعد ، المشعر بعلو مرتبة المشار إليه ، وبعد منزلته في الفضل والكمال ، وكونه بذلك مجازا منزلا منزلة الأمور الحسية ، (لميتون) لصائرون إلى الموت لا محالة ، وهذا المعنى تؤكده الجملة الاسمية وإن واللام وصيغة الثبوت فى قوله (ميتون) فالتعبير بهذا اللفظ كالتعبير بلفظ الحى فى دلالة الصفة على الثبوت . [1]

والتعبير (بميت) أكثر وأيقن من التعبير بـ (مائت) لأن العرب تقول : لمن لم يمت عن قليل مائت ، ولا يقولون للميت الذى قد مات هذا مائت إنما يقال فى الاستقبال ، ولا يجاوز به الاستقبال (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب ، ونبه – ﷻ – على عظيم قدرته بالاختراع وهو الإنشاء ، ثم بالإعدام وهى الإماتة ، ثم الإعادة وهى البعث . [2]

وقد بالغ النظم القرآنى فى التأكيد فى قوله : (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ) تنبيها للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه ، ولا يغفل عن ترقبه فإن مآله إليه فأكدت جملته ثلاث مرات لهذا المعنى ؛ لأن الإنسان فى دنياه يسعى فيها غاية السعى ، ويجمع حتى كأنه مخلد فيها ، فنبه بذكر الموت مؤكدا مبالغا فيه ،

---

[1] تفسير أبى السعود : المجلد الثالث ، جـ 6 / 127 ، دراسات بلاغية فى الآيات القرآنية من كتاب الإيضاح : 1 / 30.

[2] ينظر : معانى القرآن للفراء : 2 / 232 ، ط الدار المصرية.

ليقصر وليعلم أن نهايته إلى الفناء فيعمل لدار البقاء ، ولم تؤكد جملة البعث إلا بـ (إن) لأنه أبرز فى صورة المقطوع به الذى لا يمكن فيه نزاع ، ولا يقبل إنكارا ، وأنه حتم لا بد من كيانه فلم يحتج إلى تأكيد ثان ، أو لأن تأكيد الموت فى المعنى عائد إلى توكيد ما هو متوقف عليه من الجزاء ، ومن ثم كرر (ثم إنكم) ونقل من الغيبة إلى الخطاب [1] ؛ ولأن الموت المقدمة للبعث فكان توكيده توكيدا له وكرر (ثم) الدالة على الترتيب والتراخى للإيذان بتفاوت المراتب .

ونكتة الالتفات بين الآية الأولى والثانية (لميتون – تبعثون) هو أن المقصود التذكير بالموت وما بعده على وجه التعريض بالتخويف وإنما يناسبه الخطاب . [2]

ويلاحظ أن هذه الآراء لا تفسر فحسب التحول عن ذكر اللام فى آية الموت إلى حذفها فى آية البعث ، بل يفسر – أيضا – التحول عن صيغة الاسم التى أوثرت فى الإخبار عن الموت (لميتون) إلى صيغة الفعل عند الإخبار عن البعث إذ فى إيثار الأولى الدالة على الثبوت ما يدعم المبالغة فى تأكيد الموت وفى إيثار الثانية الدالة على تجدد الحدوث ما يوائم إبراز البعث فى صورة المقطوع بحدوثه .

ويلاحظ أيضا فى هذا التحول مدى المواءمة بين كل من صيغتى الاسم والفعل ، والمعنى الذى أوثرت فيه ، إذ الموت هو سكون أو جمود تلائمه صيغة الثبوت ، والبعث حركة وحياة تلائمها صيغة الحدوث والتجدد .

---

[1] حاشية الشهاب : 6 / 324 – المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى ، ط الأميرية ، بولاق.

[2] التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : المجلد التاسع : جـ 18 / 26.

الخاتمـــة

الحمـــد لله الذى هدانا لهـــذا وما كـــنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وبعـــد أن انتهينا من دراسة الأسرار البلاغية للمخالفة بين الصيغ فى الـــذكر الحكـــيم . يمكننا رصد النتائج الآتية :

- إن المخالفة فى الصيغ فى السياق القرآنى تمثـــل مظهـــرا مـــن مظـــاهر الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم .
- تكتسب الصيغ فى السياق القرآنى دلالتها الزمنية من السياق الواردة فيه، لا من البنية فحسب .
- أبرزت هذه المخالفة الجوانب الغيبية فى صـــورة المشـــاهد المحسوســـة المرئية كما هو الحال فى الحديث عن عوالم الجنة والنار ومشاهد البعـــث والحساب وغيرها من الغيبيات .
- كشفت المخالفة فى الصيغ عن دلالات نفسية وتربوية كما هو الحال فـــى السياقات القرآنية التى تصف حال المؤمنين والمنافقين والكفار، وكـــذلك الآيات التى خاطب بها المولى -ﷻ- هذه الأَصناف الثلاثة فجاء العـــدول فيها يمثل أثرا نفسيا ، ويقوم التصور والفكر .
- أوضح البحث من خلال تحليل سياقات هذه المخالفة أن كـــل تحـــول فـــى المبنى يصاحبه تحول فى المعنى .

وحسبى من هذا البحث لفت النظر إلى أمر أحسبه لا يقل أهمية عن كل ما كتب فى موضوعات البلاغة ، وأسأل الله الإحسان فى العمل ، والسداد فى الـــرأى والصواب فى الأمر كله إنه سميع مجيب .

د / سلامه سيد سعد

المصادر والمراجع

** القرآن الكريم (جل من أنزله) .

1. أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية، د / حسن طبل ، ط دار الفكر .
2. إعراب القرآن وبيانه للشيخ محيى الدين الدرويش ، نشر دار الإرشاد للشئون الجامعية ، حمص ، سورية ، ودار اليمامة ، دمشق .
3. الإمام البقاعى جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم ، د / محمود توفيق .
4. الإيضاح فى علم البلاغة للقزوينى ، شرح / محمد عبد المنعم خفاجى ط المكتبة الأزهرية ، ط الثالثة 1413هـ 1993م .
5. البحر المحيط لأبى حيان ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت 1422هـ 2001م ، و ط دار الفكر ، بيروت ، ط ثانية 1983م .
6. البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، ت / محمد أبو الفضل ، ط عيسى الحلبى .
7. البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ، د / محمد أبو موسى ، ط مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط الثانية 1408هـ 1988م .
8. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، ط دار التونسية .
9. التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى، نشر دار الغد العربى ، ط أولى 1412هـ 1992م .
10. التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ، د / وهبة الزحيلى ، ط دار الفكر المعاصر ، بيروت .
11. الجدول فى إعراب القرآن ، تأليف / محمود عبد الرحيم صافى ، نشر دار الرشاد ، دمشق ، ط الرابعة 1418هـ .

12. الزمن فى القرآن الكريم ، د / بكرى عبد الكريم ، ط دار الكتاب الحديث 1421هـ 2001م .
13. الزمن فى النحو العربى،د/ كمال بدوى، ط دار أمية للنشر، ط أولى 1984م
14. شروح التلخيص ، ط دار السرور .
15. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى ابن حمزة العلوى ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت .
16. الكشاف للزمخشرى ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى 1995م
17. اللغة الشاعرة للعقاد ، ط الاستقلال .
18. المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط المكتبة العصرية ، بيروت 1990م .
19. المطول للسعد التفتازانى ، ط تركيا .
20. المعنى فى البلاغة العربية منذ عبد القاهر حتى السكاكى ، د / حسن طبل، رسالة دكتوراه مخطوط جامعة القاهرة 1983م .
21. تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ط دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
22. تفسير الشيخ الشعراوى ، ط دار أخبار اليوم .
23. تفسير النسفى لأبى البركات عبد الله بن أحمد النسفى ، ط دار النفائس ، بيروت 2005م ، ت الشيخ / مروان محمد الشعار .
24. تناسب الآيات والسور للبقاعى ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت 1415هـ ت / عبد الرازق غالب المهدى .
25. حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن المنير على الكشاف

26. حاشية الشهاب المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى ، ط الأميرية ، بولاق .
27. خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى، ط دار التضامن، ط ثانية.
28. دراسات بلاغية فى الآيات القرآنية من كتاب الإيضاح ، د / أحمد عكاشة ط الأمانة ، ط أولى 1996م .
29. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ط دار المعرفة 1978م
30. روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى ، شهاب الدين السيد محمود الألوسى ، نشر دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
31. عروس الأفراح ، ط دار السرور .
32. علم المعانى دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى ، د / بسيونى عبد الفتاح فيود ، ط دار المعالم الثقافية ، مؤسسة المختار، القاهرة .
33. فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، نشر دار الغد العربى .
34. فن البلاغة ، د / عبد القادر حسين ، ط عالم الكتب ، ط ثانية 1984م .
35. معانى الأبنية فى العربية ، د / فاضل صالح السامرائى ، ط المكتبة الوطنية ، بغداد 1981م .
36. معانى القرآن للفراء ، ط الدار المصرية .
37. مفتاح العلوم للسكاكى ، ت د / عبد الحميد هنداوى ، ط دار الكتب العلمية بيروت ، ط أولى 2000م
38. من أسرار اللغة ، د / إبراهيم أنيس ، ط الأنجلو ، ط ثالثة .
39. نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لأبى الحسن البقاعى ، ط وزارة المعارف الهندية ، ط أولى 1400هـ 1980م .
40. نهاية الإعجاز فى دراية الإعجاز للرازى، ت د / بكرى شيخ أمين، ط دار العلم للملايين 1985م .